رواية نوبية

دنقلا

إدريس علي محمد

دنقلا

الرواية الفائزة بجائزة جامعة اركنساس الأمريكية عام ١٩٩٧
عن النسخة الإنجليزية

رواية دنقلا

الناشر: الشركة العالمية للطباعة والنشر

تأليف: إدريس على

تصميم الغلاف: حسان على أحمد

منفذ الغلاف: سامر محمود

إعداد بالكمبيوتر: إيمان محجوب

رقم الإيداع: ١٨٧٣/ ٢٠٠٦

سنة الطبع: ٢٠٠٦ (الطبعة الثانية)

العنوان: ٢٤ ش الصفا والمروة – النزهة الجديدة

تقسيم أبو رجيله

إدارة المبيعات: ٠١٠١٢١٩٣٩٤ – ١٣٦٥٤٣٢٦.

تليفاكس: ٦٩٨٩٥١٨

البريد الألكترونى: Email: elshekh46@yahoo.com

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

رواية نوبية

دنـــــــقلا

الرواية الفائزة بجائزة جامعة اركنساس الأمريكية عام ١٩٩٧

عن النسخة الإنجليزية

إدريس على

* دنقلا: مدينة فى شمال السودان.

الفهرس

أهـــداء	٥
أضـــاءة	٧
وصـــمة	٨
الفصل الأول: المنفصل	٩
الفصل الثاني: محاكمة عوض شلالي	٨٣
الفصل الثالث: أحزان حوشية وحليمة	١٢٣
إدريس على – وروايته الحراقة دنـــقلا ... ... بقلم على الراعي	١٥٣

* أهـــداء

إلى :

عاشق النوبة المتألق صلاح سليم

و

أصدقائي وأحبائي أهل الشمال ..

هذه كل أوراقي .. فلا تمزقوها وهذا صوتي فلا تسكتوه وهذا أنا .. فلا ترجموني، لأنى عشت بينكم وأكلت معكم وعشقت حضارتكم .. ومازلت.

إنما أنقل لكم وبصدق جارح بعض أوجاعي وأوجاع قومي.

إدريس علي

* إضاءة

((وأراد عمر أن يؤمن حدود مصر من الجنوب كما أمن حدودها من الغرب ، فبعث عقبة بن نافع الفهرى الى النوبة فلقيه أهلها وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً .. ارتد عقبة على أثره ولم يعقد صلحاً ولا هدنه. ذلك أن أهل النوبة كانوا يرمون بالنبل فلا يخطئون. وكانوا يتحرون الأعين فيرمونها فسماهم العرب رماة الحدق. وظلت كتائب عمر بعد ارتداد عقبة تناوشهم على الحدود. فلما كانت خلافة عثمان بن عفان، صالحهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح على هدنة ، الا يقاتل أحد الفريقين الفريق الآخر وأن يتبادل الفريقان، الرقيق يعطيه أهل النوبة المسلمين، والطعام يعطيه المسلمون أهل النوبة بما يوازى ثمن رقيقهم. على أن أهل النوبة لم يفكروا فى إجتياز التخوم الى مصر لمناجزة المسلمين بل كفاهم أن ردوا عدوهم عن ديارهم فأقاموا بها على حذر منه)) .

الدكتور: محمد حسين هيكل

كتاب: الفاروق عمر

* وصـمة

"أما رقيق النوبة، فإن القبائل العربية التي أقامت في منطقة المريس في القرون الأولي من الإسلام تاجرت فيه، فكانت تقوم بخطف بعض النوبيين وبيعهم للتجار في مصر. كما أن الغزوات التي شنتها مصر على النوبة المسيحية أسفرت عن أخذ النوبيين كسبي، تاجرت فيه القبائل العربية.

ويروى المقريزى، أن عبد الرحمن العمرى، عندما انتصر على النوبيين في الموضع الذى يعرف بشنقير ((بين بربر وأبى حمد)) ((كثر السبى عند أصحابه حتى أن أحدهم كان يحلق رأسه فيعطى المزين رأساً)))).

الدكتور: محمود محمد الحويرى

كتاب: أسوان في العصور الوسطى

الفصل الأول

المنفصل

- ١ -

حين انقطع الإرسال العادي، أعلن المذيع بصوت جاد .. هنا القاهرة .. وسكت، انطلقت الموسيقي العسكرية الصاخبة الممهدة لأنباء هامة أو كوارث قومية أو كونية. توتر. انفعل. أصابعه المرتعشة فشلت في إشعال السيجارة. انتظر منتبهاً بحواسه كلها. بكله. دقائق. طالت ثم انقطع الصوت معلناً: أيها السادة المواطنون إليكم ما يلي .. يصل الى مطار القاهرة ظهر اليوم ... ويستقبله ... وعلى الجماهير. ضرب المذياع بكفه وأخرسه. ضحك لسذاجته ظن الأمر متعلقاً به وبالرفاق مع أنهم لو أرادوهم .. سيأخذونهم عنوة دون إعلان. مجرد هواجس حاصرته خلال أسبوع منصرم، التزم فيه الصمت التام عن المباح والمحظور، لم يكلم أحداً أو فتح نافذة إلا لتغيير الهواء. لبث يخشى الطارق والسائل وموزع البريد والبرق والمخبر الذي يأتي بالإخطارات ونشرات الأنباء والحوائط العجيبة ذات الآذان. ولما مرت الأيام دون مجيء زوار النكد، تأكد من جدية قرار العفو العام الصادر بقرار جمهوري لم يفسده المماليك بأوامر مضادة تنغص عليه لذة حرية ينعم بها بعد عشر سنوات عصيبة. استرد ثقته. فتح النوافذ. مازح ضيوف خاله الذين يعاونونه في ربط

القفف وحزم الحقائب ويساومونه على كراكيب الشقة، والشقة نفسها، قال وهو يمشط شعره المجعد: أية خدمة يا خال ..

أنزل أنت .. اتفسح وقابلني في المحطة.

وداعا شقة الذكريات. دخل حجرة أولاد خاله المغلقة قبل امتداد أيدى الفك والبيع لمحتوياتها. كل شيء كما هو منذ سنوات، اتربة وخيوط عناكب، كتب وأوراق وملابس. بجوار السرير الأول على الحائط صورة الولد الأكبر دهب جزولى بملابس ملازم في الجيش وصور أخرى لفتاة شمالية جميلة مجهولة، مطرب مشهور، لاعبو كرة قدم. بجوار السرير الثانى صورة بحر جزولى .. الولد الأصغر طالب ليسانس الحقوق تحيط بها صورة مكسيم جوركى وتولستوى وديستويفسكي ولينين. هذا بيت الأحزان، الأكبر ذهب مدافعاً عن حدود الشمال وابتلعته رمال سيناء. والأصغر كان معتقلاً .. قتلوه وزعموا فراره. وزوجة خاله انفجر مخها حزناً عليهما. وخاله يستعد للنزوح معه جنوباً، حول مدخراته، باع أرضاً يملكها وسيغادران العاصمة معاً عصر اليوم. قال خاله مشجعاً حين وجده متردداً:

- يا أبني أذهب ..

ازدحم البيت بالزوار والمودعين والمساومين. قدموا عزاءً متأخراً في موت أبيه المأساوي. ضايقوه بالأسئلة والنصائح، قال الله وقال الرسول.

ضاق بهم وبثرثرتهم وبالمكان. وهو ينزل السلالم سمع نشيد الله أكبر فوق كيد المعتدى فأدرك أن القوم مشغولون عنه بمعارك أهم لتحرير الديار من المحيط إلى ... ، . هذا ثاني يوم يغادر فيه سجنه الاختياري. بالأمس كان خائفاً، كل أهل الشمال حسبهم بصاصة. كل خطوة تصورها الأخيرة.

اليوم يستقبل الدنيا منشرحاً .. لأنه يوم الوداع. طلاق نهائي. أنتابه حنين جارف لأماكن أحبها، ورجال عرفهم ، ذكريات عاشها، استهل جولته بأجمل الشوارع، قلب الشمال. تسكع صدم. وبهت. وقف مكذباً ما يشاهده، هؤلاء ليسوا أهل مصر .. الوجوه مكشرة، الشفاه مطبقة، البسمات باردة، النكات مبتورة. يتصادمون ويتشاتمون. يسبون الدين لبعضهم. لابد أنه تأثير الغلاء أو حرب اليمن. وربما ضغط العسكر الذين يحتلون الشوارع والمناصب. الناس يهرعون لبيوتهم مذعورين. ماذا جرى للمدينة الضاحكة؟! حلوة كانت بأم الدنيا وصفوها. تأكل أولادها الآن. السعار . أدمن عشقها زمناً. أحب كل ما فيها. أكل الترمس، الكشري، فول أبو ظريفة، كباب الحاتي، كنافة الحاج خليل. زار سوق الموسكي. وقف طويلا عند سور الأزبكية الثقافي. تبادل البسمات الودودة مع الجميلات الجالسات فوق المقاعد الرخامية على كورنيش النيل. جزءاً من الكل كان. طعنوه ولوثوا براءته. انفصل عنهم ممروراً. عشر سنوات يا ظلمة. نسبوا ما حل بهم لأمير البلاد. القاضي نفسه تردد. تلعثم. فكر. ومع ذلك حكم عليه

وعلى بحر جزولى بخمس سنوات، وعند انتهاء فترة العقوبة، شحنوهما للمعتقل. لكن ماذا حدث لمدينة النور والمرح؟! خيم عليها ظل العسكر، الخوف. كل متذمر يتبعه بصاص. بين كل أثنين يتجادلان .. ثالث مدسوس يتصيد فلتة اللسان. كتاب التقارير ينشطون، نمي الى علمنا، مصادرنا السرية أفادت، وبمراقبة المذكور أتضح أنه. الذى ينسى التصفيق لموكب الأمير يختفى. كلمة عابرة تهلك القائل والسامع. السجون ذادت. اتسعت. تنوعت. لا نجاة للمخالف. قديماً كان معهم. طالب بالجلاء أو الموت الزؤام. سب الملك والانجليز. صفق بحماس لجنود الثورة. السنوات العشر فصلته عنهم للأبد. سار يتفرج والبصاص داخله وأمامه وخلفه، يقلقه، يربكه، يكبل خطواته. عاودته المخاوف الضاغطة. مر أمام مقهي ريش ملتقى الرفاق. أطل برأسه مستطلعاً. تراجع مشمئزاً حين رأى الرفيق الواشى يتحلقه المخدوعون. الحقير. تجاوز بار استلا وشقة صديقة الدكتور التى فوق عمارة التأمين. تمني قضاء ساعاته الأخيرة معه. خاف. واصل سيرة حتى كوبرى قصر النيل وجد الأسدين مكانهما بدون الشوارب. أسود مؤنثة. مدينة محاصرة. فمع من يجلس وأين يقضى وقته المتبقي؟ . غريب في بلد غريبة. أحس بظمأ مباغت فاق حدود الاحتمال. دخل الكازينو وطلب بيرة ودوبل (زفت) رد الجرس وقال معاتباً: (زفت أية يا استاذ .. دا الحال عال والآشياء معدن). كلهم يقولون عكس ما يبطنون. شرب الدوبل دفعة واحدة فاشتعلت

مصارينه. خمرة رديئة مغشوشة. الغش. في أول زياراته للشمال استقبله محتال على باب المحطة وباعه ساعة روسكوف. طلب ربع بولاناكي، مقول مع تسليمه بقدرتهم التسللية للأماكن المقفله، بطن الحامل، خدع الزوجين والمادة الصماء لأنهم تفوقوا لدرجة دهان الهواء بالدوكو وتعبئة الشمس في زجاجات ويفهمونها وهى (طائرة). وعليه بالرحيل فوراً فوات الأوان تاركاً الشمال لأهله .. يغشون بعضهم .. يقتلون مسألة خاصة بهم. غنى مراكبى غريب الدار .. نعم .. الغربة، مفتاح أزمته مع مفاهيم الشمال، فهؤلاء العسكر، تضخمت ذواتهم وتفرعن بعضهم ولم يجدوا غير رمسيس يتفاخرون به، فأتوا بتمثاله الضخم ونصبوه في ميدان المحطة ليراه القادم والمسافر. وهو لا يحب رمسيس هذا ولا أى فرعون آخر لأنهم من الغزاة شرب كوكتيل الخمرة بالبيرة ونظر للجالسين والسائرين حائراً، نادراً ما يحتجون أو يثرثرون. وهؤلاء الذين ينتشرون بين الرواد هم غالباً عيون السلطة، المصوراتى وبائع الفل وماسح الأحذية وغيرهم. سكر وفكر في العبث بهم واختيارهم، هتف بصوت مرتفع تعمد توصيله إليهم:

- لك يوم يا ظالم ..

بص عليه شرطى من فوق الكوبرى محدداً الهدف. جدف المراكبي مقترباً من الشاطيء وربض أصفل الكازينو. أسرع نحوه ماسح الأحذية وجلس تحت قدميه. وجاء جرسون آخر بمزة جديدة،

نظف المائدة مرتين وقال لكى يجره للثرثرة:

- أى خدمات يا بك؟

تأمله محاولاً تحديد الجهاز التابع له. تجاهله، تساءل الجرسون من جديد:

- الأخ من أين؟

شرب كأسا وقال في سره: (وانت مالك يا بارد) .. تركه يتكلم بمفرده ..

- سوداني طبعاً

- أنا لب ..

ها .. ها. ضحك ثلاثتهم ..

- عموماً تحت أمرك ..

- أريد خدمة فعلاً.

- أطلب ..

وقاطعهم ماسح الأحذية متنهداً:

- الدنيا كلها ظلم ..

هو الآن بين بصاصين ولديه فرصة لاهانة أحدهما أو كليهما. بدأ بالجرسون، أشار له أن يدنو. انحني برأسه نحوه، قال له هامساً، متصنعاً الخجل: (أنا عاوز مرة .. ممكن). ابتعد الجرسون غاضباً – أحس بفرح صبياني. الماسح أكمل المهمة، قال : (تعرف يا بيه .. بلدنا دى عاوزة الحرق) رد في سره : (ومستني أيه؟) ونظر

للصندوق فوجده لامعاً، غريباً. التزم الحذر لما تذكر معتقل الواحات وترك الماسح يسب ويسخط مدندناً بأغنية ما. وشاهد المصوراتى يقترب ..

- صورة تذكارية يا بك؟

الخمرة تذهب بالواحد للمهالك .. قال للمصوراتي ضاحكاً:

- بشرط أن أكون عارياً بجوار التمثال ..

وها هو بائع الفل يحوم حوله. عيب أهل الشمال ادعاء الفهلوة، مع أنهم ... ، . شرب كأساً أخرى وتذكر زوجة أبيه، روحية البولاقية القاتلة، أنتابه ضيق خانق. بنت الكلب . بالأمس حين ذهب يبحث عنها، كان ينوى خنقها لو تأكد بشكل ما .. أنها دست السم لأبيه بعد أن استعمرته واستنزفته. أبوه الساذج تصور حضارة الشمال مجرد أمرأة بيضاء طرية، ثقيلة الردفين، مكشوفَة الثديين، فوقع فريسة لأبشع النساء، صائدة رجال محترفة .. بلسانها الحلو وملابس الستان اللميع والدانتيل المخرم، وباللبان تلوكه وتطرقعه .. لتثير بشفتيها الشهوات. وهدفها عم شلالى الكسيب جرسون فندق شبرد، فألقت إليه بالطعم، جسدها البديع. غازلته، صنعت له المحشى، غسلت ملابسه، غنت له أغانى تشيد باللون الأسمر، ترصدته بجوار حوض الغسيل المشترك، عبر

نافذة المنور. حرمته راحة البال فطلبها بجنون لكنها لم تهبه نفسها ألا بواسطة المأذون. تكالب عليها ونسى أمه ونسيه. كل منهما اختار طريقاً مختلفاً للتعامل مع حضارة الشمال .. الموت عشقاً أو فكراً .. سيان . تعود به الذكريات لبداية محنته ..

- أسمك؟
- عوض شلالى.
- موطنك؟
- منتصف المسافة بين الشمال والجنوب، في المنطقة التى هلك فيها جيش قمبيز وارتد منه جيش المسلمين مهزوماً وقد فقئت عيون فرسانه، الآن .. صارت كلها مستودعاً لمياه الشمال.
- ركز أجاباتك .. اختصر ..
- هذه مجرد نبذة تجهلونها عنا.
- ديانتك؟
- أؤمن بالعدالة.
- وثني يعني؟
- هذه عقيدتي .. فسرها كما تشاء.
- سنك؟
- ولدت في زمن الضعف.

- هل لديك أقوال أخرى؟
- نعم .. لقد زرعتم في قلبي الكراهية.
- خذوه وعلموه الأدب ويعرض مرة أخرى.

القساة .. ضربوه ضرباً ليس له نظير . عذبوه وحالوا بينه وبين الإخراج حتى كادت أحشاؤه تتمزق. الهول. لو سمع كلام (حوشية) (*) أمه: (ما تمشي يا ولدى لبلاد الحية). هكذا كانت تصف روحية ضرتها. كل صيف كان يأتى مشتاقاً، منذ أيام التلمذة وهو يواظب على زيارة الشمال .. القبلة.

يقضي شهوراً مع بحر جزولى، جاب معه المكتبات، الندوات الثقافية، مقاهى الأدباء ثم التقى بجماعة المستقبل والدكتور والرفاق. وحلموا بعالم أفضل وكان السجن فالاعتقال .

شرب كثيراً تعويضاً عن ظمأ عشر سنوات. اختل توازنه، نظر لأعلى باحثاً عن إله ينظم هذه الفوضى. ارتد ببصره يائساً رأى أهل الشمال بلا رءوس وبحر جزولى مشنوقاً ومعلقاً برقبة أحد الأسدين وأباه جثة طافية على صفحة النهر وروحية تتفحش مع صعاليك بولاق، والرجل الرهيب .. بعبع اليسار، يجوب المدينة باحثاً عن ضحايا جدد وتنظيمات يتخيلها. ورأى الشمال كله فاسداً، المجد للوشاياه والأنذال .. والموت للأصلاء. أين التوازن إذن وأين موضع الألة؟!.

(*) حوشية: اسم سيدة.

بالأمس حين ذهب الى حى بولاق أبو العلا .. وسأل عنها، أنكرها الجيران، امتعضوا من سيرتها. لعنوها. وعند إنصرافه، التقى بعم عثمان الكنزى، بلدياته، استضافه وقص عليه أدق تفاصيل المأساة. جلس يستمع متأففاً وروحه تكاد تطلع من الروائح الكريهة المنبعثة من دورة المياه القريبة، ودم البق الملطخ في الحوائط وبخر الأسنان وأعقاب سجائر الكوتاريلي والأغطية البالية. حلم يوماً مع رفاقه بغرف صحية لكل الناس ونسف هذه القبور، وعم عثمان هذا كان مزارعاً له أرض وبيت جميل على ضفاف النيل في بلاد النوبة الغارقة. غاص بيته وأرضه في جوف النهر خزان الشمال .. شردوه. كان أبوه أيضاً مزارعاً قبل نزوحه للشمال ليعمل بواباً قبل انتقاله لشبرد. زاره مرة واحدة أمام إحدى عمائر الزمالك، رآه ينحنى للكبار والصغار ملبياً طول الوقت نداءات نسوة تافهات يعذبنه بين السوق والأدوار .. ربما لشراء كيس ملح أو حزمة جرجير. أحس يومها بالحقد والقرف وتعمق ارتباطه بفكر الرفاق. المساواة. العدالة. وعم عثمان الكنزى .. هل يعرف أصل اسمه الثاني، لقب هبة الله أبو المكارم .. كنز الدولة، أحد صعاليك العرب الوافدين والذي تآمر على أمن الجنوب لحساب الأيوبيين واستولى أحد أولاده على شمال النوبة وسماها بلاد الكنوز.

غزاة من كل ملة تركوا بلادهم طمعاً في بلاد الآخرين.

وبحر جزولى اعتنق رأياً متعصباً للجنوب وسرب مقالاً هاجم

فيه مسألة تهجير أهل النوبة لجبل السلسلة، أخذوه بعدها ولم يعد .. فأخلص له وحمل عبء الدعوة منسحباً لعصر رماة الحدق مخططاً لدنقلة جديدة ونوبة مستقلة موحدة رغم معارضة الرفاق لتطلعاته الانفصالية. لكن بماذا يحقق الحلم المستحيل بعد أن أبادت كتائب الظاهر بيبرس فرسان النوبة.

عوض شلالى سكر. وقف يغنى (أروح لمين) تعجب أن يفعل بهم رجل واحد هذا كله؟ بقايا الحجاج! ..

وعم عثمان الكنزى واصل نبش سيرة المقتول عشقاً: فحين شح مال أبيك انصرفت عنه روحية باحثة عن بنك آخر وعجل أقوى، سمعتها بأذنى يا ولدى وهى تردح له : (نعم يا خويا ما بقاش إلا أنت يا قعر الحلة كمان جاى تتحكم في ستك .. روح يا بابا للسودة بتاعتك .. أهى قاعدالك هناك زى البومة). أهانته وأهانتنا معه، نصحناه وكشفنا له المستور من مشيها البطال .. ويا شلالى هذه أمرأة من صنف رديء .. طلقها وأرح نفسك. لكنه أبداً لم ير أبعد من سرتها. حتى ضبطها بنفسه، يوماً وهى تصاحب ولدا صعلوكاً في سينما على بابا. عاد بها هائجاً. كتفها، قص شعرها، نزع أساورها الذهبية، واستولى على المال المخبأ وورقة الأرض وكلها من عرقه .. ثم طردها. والداهية لبدت بجوار الباب تبكي وتقول كلاماً يلين الحديد، كلام يا ولدى حلو تجيده وتتلاعب به، تذكره بالذى كان وحلفت براس الحسين أنها شريفة ومظلومة وستكون من الآن ..

خدامته والمسكين صدقها وأعادها، سمعناهما يتعاتبان ويبكيان .. ثم يضحكان كالحشاشين. لعناه وانسحبنا لغرفتنا نتعجب لأمر هذا الرجل الديوس الذى فقد نخوته. منتصف الليل صحونا على صراخه، هرعنا إليه، وجدناه يقيء ويسهل أسرعنا به للقصر العيني ومات قبل الفجر. قدمنا فيها بلاغاً وطالبنا بتشريح الجثة، ماعت الأمور والساقطة طلعت منها بسهولة .. بلد بنت ستين كلب، كله بالفلوس ..

- قل لى يا عوض شلالى .. لماذا حبسوك؟
- وماذا سمعت ..؟
- كـــلام ..
- مثـــل؟
- يقولون أنكم لا تؤمنون بالله ورسوله.

كيف يفسر له. حتى بالتبسيط لن يفهمه. هذه الحجرة العفنة والحياة التعسة. والجنود الذين عذبوه من الفلاحين وعمال التراحيل. لقد مات حماسه القديم للشرح والإقناع. وحقائق تكشف عن أكاذيب وأوهام. بعض الرفاق كانوا يتاجرون ولا يؤمنون بما ينادون وبينهم الانتهازيون والوشاة. قال لعم عثمان السلام عليكم ونزل. رأى على ناصية شارع أبو طالب أفنديا يخفى وجهه بجريدة، خمن هويته، اقترب منه متحرشاً وقال له السلام عليكم يا عرب. وهو يكره العرب الوافدين الذين ينتمي إليهم كنز الدولة والعمرى قاطع الطريق ويكره المماليك الأوباش الذين منهم بيبرس ويكره الفراعين وروحية

والأمير. ارتبك الأفندي ورد التحية متلعثماً. تركه مبلولاً وأخترق حواري بولاق متتبعاً خطى روحية سائلاً عنها من يتصور أنهم أقاربها مع علمه بأنها مقطوعة لا أصل لها ولا فصل وربما ترقد الآن تحت حمار آخر لا يهمها من يكون، يتساوى عندها العربي والعجمي والأسود والأبيض .. كل بغيتها المال والعجل القوى، مومس لاشك في ذلك. ابتاع جريدة ورأى صورة الأمير بأنفه الفرعوني. ورأى أيضاً صورة الرفيق الواشي تزين صفحة الأدب. الحقير. حواري حقيرة لزجة موحلة بسبب الماء الوسخ المسكوب من الشرفات بعد حمامات الفجر. جاب مناطق القلاية ودرب نصر والسبتية والشيخ على والعدوية البرانى والجوانى والتركمان وسبه غلام سوقي بكلام بذيء: (بربرى هوبوا. هوبوا .. دخل الجنينة قطعوا ...) وشاهد معركة دامية بين هراوات الصعيد ومطاوى ولاد البلد. زمان كانوا يجمعون الصعايدة ويجوبون بهم الحوارى وهم يهتفون (تنتخبوا مين .. دلال حسين .. حسين دلال .. الرجل الدد يحب الدد يموت في الدد). ثم قالوا أيام هيئة التحرير (يا جمال .. يا جمال ..). وكانوا يوزعونهم أمام لجان الانتخابات للإرهاب. وشاهد شلة اسطوات في غرزة يحششون ويستمعون لأم كلثوم والمؤكد أنهم سينسطلون ثم يتطوحون آخر الليل عائدين لغرفهم العفنة لمضاجعة البولاقيات ذوات الأرداف الثقيلة والمناطق الملساء المنتوفة

بالحلاوة .. فيحبلن ويلدن أطفالاً يكبرون ويحترفون التصفيق للغالب والظالم والملك والسلطان والرئيس معتقدين كآبائهم بأن زوج أمهم هو عمهم .. فكيف ذلك والغريب لا يصير عماً؟

●

عوض شلال قرب النهر مازال. طلب زجاجة بيرة أخرى وشرب. الليلة يركب قطار الجنوب عائداً لأمه المنتظرة منذ عشر سنوات، قاطعا صلته بالشمال، تاركاً خلفه الرفاق الذين أعلنوا حل الحزب وتصالحوا مع الأمير والسجون والخوف وقتلة بحر جزولي وروحية والرجال الذين من ورق والضباط الآلهة وكتاب التقارير والرفيق الحقير والشمال بما له وما عليه.

حاول للحظة أن يمنطق الأمور، فكر أن أباه ربما مات بالتسمم الكحولي أو بعد ابتلاعه سهواً معجون الحلاوة التي تنتف بها روحية ما بين فخذيها. أو دمر نفسه انتحاراً بسبب ضعفه الجنسي أمامها. وأن بحر جزولى ربما فر ولم يقتل ضرباً كما توهم. وأن الرفاق كانوا يخططون لأمر خطير من خلف ظهره .. وكيف له العلم بخططهم وهو يلتقي بهم صيفاً وبعده بالرسائل والمنشورات. وأن هذا المصوراتى .. هو فعلاً كما يبدو وليس عميلاً للمخابرات العامة أو الحربية أو مخابرات الحدود أو رئاسة الجمهورية أو المباحث الجنائية العسكرية أو المباحث العامة أو أمن الدولة أو مباحث قسم قصر النيل

أو مخابرات خاصة لهذا المملوك أو ذاك. ياه .. كم عدد الأجهزة السرية في دولة الشمال؟ وضد من يعمل كل هؤلاء؟. أنه الشك المدمر الذي قاده يوماً للسماء ذاتها. ومن ذاق هول السجن الحربي .. لن يتصور وجود جحيم آخر. والجنة التي تنعم بها القلة على الأرض .. ينبغي انتزاعها عنوة. تعود به الذاكرة للنهاية مرة أخرى، كعادته، كل صيف، جاء بعد نهاية السنة الدراسية، ولكن هذه المرة، لشراء مستلزمات عرسه الذى تقرر، قالت له أمه بالحاح: (يا ولدى .. خليني أعرسك وأفرح بيك .. لأني خايفة عليك من نساوين مصر) وهو أبداً لم يفكر في الشماليات لأن روحية وضعت سداً بينه وبينهن وافق. اختار وعند لقائه بالرفاق اقترح بحر جزولى دعوتهم لحضور حفل الزفاف. تحمسوا لأنه أكثر الرفاق نشاطاً وحماساً، بينهم اساتذة جامعات وطلبة وعمال. دفعوا أجور الانتقالات من جيوبهم وابتاعو له هدية عجيبة، مفتاح القاهرة من الذهب. ركبوا جميعاً مفتخر الثامنة، يتسامرون، يضحكون ويتناولون أهل النوبة والصعيد بالنكات اللاذعة، قال أحدهم مازحاً:

- أخاف أن يأكلونا هناك.

رد آخر متصنعاً الاستغراب :

- أمازالوا يأكلون لحوم البشر؟!

قطع عليهم بحر جزولى معلقاً:

- ولكننا لا نستسيغ لحوم الحمير.

ضحكوا طويلاً ثم تحدثوا بجدية في كيفية تثوير أهل النوبة اللذين يعبدون الأولياء بعد الإله وتجنيد رفاق جدد لمعاونة عوض شلالي. كانوا يحلمون عندما توقف القطار بعد محطة المنيا ودخل خطا فرعياً مهجوراً. ثم داهمهم رجال الأمن .. دعاهم لعرس جنوبي .. فقادوه لمذبحة شمالية ..

- المتهم عوض شلالى ..
- أنى هنا.
- لماذا كنت تتردد على القاهرة كل صيف؟
- عشقتها ..
- وما علاقتك بهؤلاء الـــ ... ؟
- هم صفوة أهل مصر ..
- هل كنت تعلم نيتهم في قلب نظام الحكم؟
- كـــيف ؟
- نحن اللذين نسأل ؟
- وبماذا أجيب ؟
- ثبت لنا تنقلك بين قرى النوبة وأحياناً حتى حلفا ودنقلة.
- تلك كلها بلادى.
- لدينا ما يؤكد بأنك بلبلت أفكار الناس.
- كنت أفتح عقولهم.

- لأى شيء ؟
- للعدالـــة.
- من كلفك ؟
- هذا واجبي.
- وقع هنـــا ..
- مازلت مصراً على قراءة أوراق التحقيق .. فلست أمياً.
- نحن الذين علمناكم يا أبن الجارية.
- أحتج لأن أمى سيدة نوبية حرة.
- وقع أحسن لك.
- أقرأ أولا ..
- من أخطاء الحكومة أنها فتحت لكم المدارس .. لو تركناكم همجاً لبقيتم سفرجية وبوابين لنا .. خذوه مرة أخرى وأدبوه.

●

اتى على باقى الزجاجة وجلس يتفرج .. النهر سبب البلاء ينساب شمالاً، والبصاصة يحومون حول الرواد باحثين عن صيد. وهو مازال حبيس تراكمات الماضى. وبالأمس حين فشل في العثور على روحية، قصد قسم بولاق ليقدم ضدها بلاغاً. وجد زحاماً وشجاراً حول الصول القابع خلف دفتر الأحوال، وبينما المجني عليه

واقفاً تكال له الصفعات، يجلس الجانى محتفياً به لأنه من صفوة أهل بولاق. قال الصول ضجراً حين اخترق عوض شلالى الزحام واقترب منه: (نعم يا استاذ .. نهار مهبب من أوله .. طلباتك .. نشل ولا خناقة .. ضرورى حد باع لك الترماى). ها .. ها. ضحكوا. ابتلع ريقه والاهانة ونظر مندهشاً للمخبرين والعساكر والشهود يشربون المرطبات على حساب الجانى ويتخاطفون سجائره الفاخرة ثم أجمعوا على أن المجني عليه هو الذى بطح نفسه وسب الدين والحكومة. وقال الذى كان جانياً أنه تنازل عن حقه، لكن حق الله مستحيل وحلف بالطلاق أن يحرروا محضر سب دين لهذا الولد الصايع. عوض شلالى ذادت دهشته بعد قراءة شعار الشرطة في خدمة الشعب وأدرك أن روحية لو جاءت، سيأتى معها الشهود الجاهزين وربما اتهموه بهتك عرضها وأدخلوه السجن. تراجع وقال أول ما خطر بباله ..

- جئت أقدم بلاغاً عن اختفاء بحر جزولى.
- ومن يكون ؟
- ابن خالى .
- وأين تم هذا ؟
- فى سجن الواحات ؟
- ماذا تقول يا أستاذ .
- أقسم أنه مدفون هناك.

- وما شـــأننا ؟
- الستم الشرطة التى في خدمة الشعب ... !
- يا استاذ كل جهة لها اختصاص .. أذهب لشرطة الواحات.
- أسافر يعني ؟
- أذهب للنائب العام أو وزير الداخلية .. انتظر .. ماذا قلت .. الواحات .. تقصد المعتقل .. آه ... بالسلامة.

استدار لينصرف فسمع الصول يقول لعريف بجواره أن هذا الافندى من الحمر أياهم رغم وجهه الأسود. التفت عوض شلالى ورد عليه بغضب عنيف ..

- نهار أبوك هو الأسود ومؤخرتك هى الحمراء.

قام الصول والعساكر والمخبرون والجاني والمجني عليه وحتى من ليس له دخل في الموضوع وتحلقوا عوض شلالى محاولين افتراسه. صرخ فيهم وهددهم بأن المقترب منه هالك .. لأنه ممسوس، يده والقبر. حدثت جلبة وضوضاء نبهت المأمور الذى جاء مسرعاً وقال: انتباه. وقفوا كالألواح وضربوا له تعظيم سلام. فعلاً .. ناس يخافون ولا يحتشمون. قال الصول محرضاً:

- يعجبك كلامه يا بك .. يهين الحكومة ونسكت .. ؟

رد عوض متهكماً :

- وهل أنت الحكومة ؟

- وقال مخبر عدواني :

- ندخله الحجز يا بك.

- وقال الجاني متعجباً :

- آخر زمن .. كان عند جدى عشرة من هذا الصنف غير الذين اعتقهم لوجه الله .. ولم أتصور أن يأتى يوم يتطاولون فيه على أسيادهم رد عليه عوض شلالي مستفزاً :

- أى أجدادك تعنى ..؟ الذي كان يلعق أحذية المماليك ؟ أم الذي كان يورد النساء لعساكر نابليون ؟

قال المأمور محذراَ :

- من فضلكم ..

قال الصول :

- المفروض يتأدب يا بك.

قال المأمور بحزم :

- انتهينا ..

قال الجاني بغيظ : (قلمين ثلاثة تفوقه .. تلاقية شارب بوظة .. أقول لكم سيبوه ليه .. صبياني بره يوضبوه .. مماليك قال).

قال المأمور شاخطاً :

- قلنا خلاص .. أذهب لحالك يا أستاذ.

عقب عوض وهو يتجه لباب الخروج:

- حالى لن يتعدل قبل أن يدخل الجاني غرفة الحجز وتشنقوا روحية وتقبضوا على قتلة بحر جزولى.

ثم قال السلام عليكم وانصرف، انفجروا خلفه ضاحكين. وقال الصول نافخاً: (أما بلاوى بتتحدف علينا) وتبعه مخبر عن كثب. وعوض شلالي سار منفعلاً والغيظ ينهش صدره من كلام البولاقى الذي يتفاخر بأن جده كان يستعبد الناس، عبيد يملكون عبيد !؟ . وقف في شارع الجلاء يتفرج والناس يجرون، يصفقون للموكب ويقولون أنهم سيفتدونه بالروح والدم. فعلوا هذا مع كل الذين سبقوه. أحب هذا الرجل لما قال أرفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد. كرهه حين زج بهم في السجون ومازال الشعور الأخير متمكناً منه. وقف مندهشاً لهذا الحماس الجنوني واضعاً يديه في جيوبه، زغده المجاور له خائفاً : (سقف يا سمارة لتروح في داهية) . انصرف قبل أنتهاء الزفة وذهب لمقهي النوبيين في عابدين باحثاً عن الاصدقاء القدامي. جلس بعيداً، أرسلوا له التحيات عبر الهواء. يخافون. والفرقه النوبية بقيادة على كوبان تغني للسد والثورة. ورؤساء الجمعيات الخيرية يرسلون برقيات التأييد: سيروا على بركة الله ونحن وراءكم. هؤلاء ليسوا أحفاد رماة الحدق. ضيعوا النوبة وماضيهم وحاضرهم، سبهم جميعاً وقام يتسكع.

طلب زجاجة بيرة ونظر لزحام السائرين فوق الكوبري يرفعون الأعلام الحمراء والبيضاء فظن الحرب قامت .. لكن بين من ومن؟. قال أحد الحاضرين متحمساً:

- أهلى حديد.

رد عليه آخر :

- زمالك فن وهندسة.

- وثالث راقصاً :

- آهلى .. بيب بيب .. آهلى بيب بيب.

أحس بدوار شديد وهو يحاول تحديد موقع الدولتين المتحاربتين من خريطة العالم. لكن صوتاً غاضباً قطع عليه محاولة التذكر، لأن رجلاً متوتراً لم تحتمل أعصابه سخافة الوضع فقال صارخاً: (أغرب شعب في العالم .. أهلى أية وزمالك أية وأحنا مش لاقيين ناكل وعايشين في حماية البوليس الدولى).

المصوراتى غافل الغاضب والتقط له صورة وثائقية نادرة. اقترب ماسح الأحذية من المنطقة الساخنة. خرج بائع الفل مسرعاً. دخل رجلان وقوران واصطحبا الغاضب في هدوء.

انسحب البعض. لزم العشاق الصمت. وظل عوض شلالى مكانه ينظر للسائرين ويظنهم من شدة سكره جنوداً غزاةَ يقصدون الجنوب لتدميره والعودة بالفيىء والأسلاب وبآلاف ممن يسمونهم؟ بالعبيد وهم فى الواقع أهل تلك البلاد. فلأى غزاة ينتمون؟ أكثرهم

تدميراً كان الفرعون سنفرو، ثم تعاقب بعده السفاحون. ابشعهم شمس الدولة تورنشاه وأسفكهم الظاهر بيبرس معبود الشمال. سبهم جميعاً بما فيهم شكندة الملك النوبى المخلوع الخائن. وسب كنز الدولة والسير وليام ويلوكس مدير الخزانات والباشوات والسلاطين ومحمد على ووزراء الرى السابقين واللاحقين وكل من وضع حجراً في الخزان الأول والسد الثانى. وسب النهر الذى هزم أمام السد وسب العالم كله الذى ساهم في انقاذ المعابد وترك الناس. غلى دمه. توتر. اعتلى مقعداً وصرخ بأعلى صوته: (يا أولاد القحايب). وسمع صوتاً يرد عليه من بعيد: (بتشتم مين يا ابن الواطية). وقال آخر: (سيبك منه دا باين عليه زملكاوى عبيط، أصل كل البوابين زملكاوية). وجاء مدير الكازينو ومعه السفرجية، أنزلوه، حاسبوه بالزيادة، ثم طردوه. عند الباب، التقطه مخبر ببالطو وجلابية وقادة لركن مظلم بجوار مبنى مجلس قيادة الثورة، فتشه واستولى منه على الفكة وعلبة السجائر والولاعة وأخلى سبيله. سار على الكورنيش مترنحاً حتى وجد فتحه وسلالم تؤديان للنهر. نزل بصعوبة وأدخل اصبعين في حلقة وتقيأ، طارداً آثار الخمرة المغشوشة من معدته. واغتسل بماء النهر. أفاق. غمر رأسه في الماء واسترد وعيه تماماً. صعد. سمع زئير الجماهير بعد الهدف المبكر الذى اخترق شباك الأهلى وأدرك أن الحرب لابد ناشبة. واصل سيره عائداً. وجد نفسه في قلب الزحام. ميدان التحرير. رأى الأشياء بوضوح انقشع الضباب عند حقائق

بسيطة، فهؤلاء الزاحفون ليسوا جنوداً غزاةَ، إنما هم أهل الشمال المتعبين العائدين لبيوتهم بعد عمل شاق، وهو لا يكن لهم عداوة ولا حقداً، فليسوا جميعاً قتلة بحر جزولى وإنما القتلة قلة باغية لم تفرق يوماً بين شمالى وجنوبى، بين ملحد ومؤمن أو مسلم وقبطى. ولا كان لهؤلاء المعاصرين يد في تدمير الجنوب واستعباد فرسانه. وإذا كانت روحية فاسدة وقاتلة، فهى تمثل هامش نساء الشمال والمسألة سوء اختيار من أبيه. وبين الشماليات فاضلات، مثقفات، مناضلات ، ولو تقدم لأجملهن، لن ترفضه مطلقاً بسبب اللون لأن أبا المسك كافور الأخشيدى تربع يوماً على عرش مصر. نعم.. القاهرة جميلة وأهلها على درجة كبيرة من الطيبة والتسامح. والذين اجتاحوا الجنوب وخربوه، فعلوا ذلك مع حضارات أعرق وأمم أقوى .. فتلك كانت ثمة عصور القوة الحمقاء. والذي وقع له، مجرد أمر عارض لابد أن يتجاوزه. خلع ثوب العبوس، عاكس عذراء وتلقي منها بسمة اسعدته. نكت مع بائع مراوغ. وهب نقوداً لمتسول. قاد ضريراً للجانب الآخر. هاتف الدكتور، شاكراً ومودعاً، فهو لا ينسي أنه علمه لغتين ثمينتين في المعتقل . ابتاع جريدة المساء وأسرع للمحطة بقلب مفعم بحب قديم. وجد القطار يوشك على التحرك، قفز راكباً وتنقل بين العربات باحثاً عن خاله.

- ٢ -

قطار الجنوب البطيء ودرجته الثالثة العجيبة. التكدس. الزحام. الفوضى. قاع الأشياء .. والركاب، أهل الصعيد والنوبة والسودان. الجلاليب والعمائم. البسطاء. عساكر الجيش الذين يحتلون الأرفف، بأحذيتهم فوق الرءوس وأحزمتهم الجاهزة للضرب. وقد رفض ركوب المفتخر بسبب تلك الذكريات وأيده خاله لأنه يحب الونسة مع الأقارب بدلاً من زنزانة عربة النوم. لكن هذا القطار لا يطاق، هاجمه الصداع وآلام بطنه المبتلاة بالمصران العصبي. منذ ساعات تصالح مع نفسه والعالم والوطن الأم. يهوى من جديد لدائرة الاكتئاب. أوجعه المقعد الخشبى، خنقه التراب المتسرب من نوافذ محطمة، أزعجه الضجيج والمعارك الناشئة بسبب قضايا تافهة ومفاهيم متخلفة، وقد أرتفع الشوم وكاد يشج رأساً لأن أحدهم سب الآخر ونعته بالجمس وهو السقاء في بلاد الصعيد الجواني، الجمس والهوارة والأنصار والجعافرة والأشراف والكنوز والنوبيين والحلب والنور والغجر والبشارية والعبابدة والعرب السادة وعرب الخيش والفلاحين والأقباط والمسلمون والذى ينتسب للنبى والصحابة ومن يدعيه. الأصل والتفاخر والمعايرة. وقد حلم يوماً بقطار موحد الدرجات وبوطن لا يتعصب فيه أحد للون أو دين وبالعدالة. من أجل هذه المبادئ .. فكروا ونظروا وسجنوا. وحلم بالطعام يوزع

بالتساوى، لماذا ينعم أهل العاصمة بالخيرات ويموت من دونهم مرضاً وجوعاً. وعقب التعليات المتتالية لخزان أسوان واجه قومه مأزقاً حضارياً وجودياً طاحناً بعد فقدانهم للأرض. جدب وقحط. ومن سوء حظه أنه ولد في عصر المجاعة. يتذكر متألماً طفولته التعسة، بات الليالى بمعدة خاوية حين لم يجدوا حطباً للخبيز، أكل عصيدة منفرة اسمها (أمبودايس) أو الماء المملح قوامها الماء المغلى والزيت والملح والخبز الأسود. أكل ملوحة عفنة تعافها الكلاب يسمونها (الطركين) أكل دقفة الملح و (الكشر نجيج [*]). أكل العصافير والجراد والكراكي والثعالب والخبز الحاف. كان السمك وفيراً وزيت القلى عزيزاً. الحلوى عسل أسود وحلاوة طحينية أن وجدت وندر وجودهما. اللحوم والطيور للمناسبات الدينية والأعياد وعودة المغتربين والضيوف والأعراس والمآتم. ذهب للمدرسة الألزامية حافياً بجلباب وحيد يلبسه صيفاً وشتاءاً وصرة أفطار بلحتان أو بيضة. وفى أيام الرخاء فطير بدقيق القمح العزيز اسمها (طاجن كل). والطريق للمقبرة يبدأ بأبسط الأسباب، لأن بينهم وبين أقرب وحدة علاجية مسيرة يوم بالمراكب ويومين بالدواب أو سيراً وسط الجبال الوعرة والوحوش المتربصة. وطبيب القرية المقيم حلاق جاهل أدواته الموس للحلاقة والختان والفصد بجوار العيون المتقرحة وكاسات

---

* الكشر نجيج : ورق اللوبيا.

الهواء والمسامير لكى الأقفية والأدمغة وخلع الضروس بالحبل وأعشاب تهلك البطون وأدعية وتعاويذ. اصابته الحمى يوماً فشوهوا قفاه ورأسه بمسمار ساخن ودهنوا جسده بالطين المحمل بقواقع البلهارسيا. وكاد يموت لولا الحظ عاش بينما أبادت الأوبئة الكثير من أقرانه، الملاريا والكوليرا والصفراء والدرن، عدا لدغة العقارب والثعابين. كانت منطقة منسية سقطت من خريطة الوطن وجعلوها خراناً لمياههم. لا زارها ملك ولا سلطان ولا باشا، والرئيس الوحيد الذى تعاطف معهم أطاحوا به. وقومه السذج يظنون ما حل بهم غضباً من عند الله .. فلماذا يغضب الإله على بشر يصلون له ويعبدونه إذا كان هذا هو ثمن الرضي؟ وهو صغير، قليل الخبرة، تصور الدنيا كلها على هذا المنوال حتى زار الشمال، صعق. دهش. وظنها الجنة التي يحكى عنها شيخ المسجد في مواعظه، صنوف الفواكه مكدسة فوق عربات اليد واللحوم بأنواعها معلقة أمام دكاكين الجزارة. والخبز أبيض نظيف والماء النقي والكهرباء. وملابس مكواة ووجوه بيضاء موردة وندر الحفاة. فأين هذا كله من قريته المعلقة فوق الجبال وتسبح في الظلام مع المغيب وليس بها ورقة خضراء طوال شهور الشتاء؟. وعرف فيما بعد، أن هذا الخير كله، ناتج الرى المستديم الذى يوفره الماء المخزون فوق أرض النوبة. غضب وحقد وأصاب قلبه حزن مقيم. لهذا حين كبر وقرأ أسعده أفكار بحر جزولى

ورفاقه العدالة. من يومها كره خطباء المساجد الذين يمنون الناس بجنة وهمية. كره جده وكل المسنين لأنهم رضخوا لظلم الشمال. كره أباه بعد سقوطه في حبائل روحية السافلة. كره جدته التى ملأت رأسه بخرافة زلعة الكنز. كره المسكنات والغيبيات والأولياء وليلة القدر والمكتوب على الجبين والناس الذين خلقوا درجات. كره القسمة والنصيب واليد العليا والزكاة وبيت المال وقطار الرحمة والمعونات والشحاذة. كره أموراً ليس لها حصر.

ولم يكن بوسع قوة أن تعيد إليه الحب قبل أعلان رأيه المساواة. والليل طويل والصداع مقيم والقطار بطيء متهالك ومأساة. وخاله الذى تكفل به وبأمه حين استنجدوا به، يدخن بشراهة ويحدق بعينين ممتلئتين حزناً فادحاً فى لا شيء، كان من مساتير القاهرة بسبب عمله طباخاً لدى السفير الانجليزى، وكاد يلج مجتمع السادة بعد تخرج ولده الأكبر ضابطاً، والأصغر كان على أبواب المحاماة والنيابة. وهو عائد بالخسارة والهم. وحزنه على الأصغر بحر جزولى أفدح. مسح دمعتين وتساءل متألماً:

- لماذا قتلوه ؟
- كان رجلاً.
- حدثني عنه ..
- كان يحبك يا خالى.
- حدثني عنه.

يوم اعتقلوه كان مصرياً، لكنه مات نوبياً. أفكاره الانفصالية المتطرفة نبتت بين الزنازين وترعرعت على ضربات السياط والإهانات اليومية. كان واعياً وقارئاً للتاريخ النوبي المطموس عمداً. وحين ساءت المعاملة، تزعم اضراباً عن الطعام مطالباً بتحسين الأحوال. تصدى له ضابط صغير مغرور وساعد بسوء تصرفه على تعميق الفجوة. أهانه أمام الجميع بكلام جارح غير مبرر:

- الم يبق إلا أنت يا ابن لحاس الصحون ..

دفع الغيظ وقسوة الإهانة ببحر جزولى أن يرد بغير ما يؤمن:

- هذا صحيح .. لكن الناس الذين لحس أبى صحونهم .. كلابهم أنظف منك.

- قلبك أسود مثل وجهك.

- سواد لوني ثابت وله أُصول .. وعليك أن تسأل جدتك عن مصدر عيونك الزرق!

لو حكى لخاله تفاصيل ذلك اليوم .. لمات بالسكته. هو يوم الانتقام الدموى لا يظن مخلوقاً مر به قبل بحر جزولى. تناوبوا ضربه بالأحذية واللكمات ثم تركوه عرضة لشمس يوليو الحارقة لكى يزداد سواداً وأصالة على حد قولهم. وخاله نام راضياً. والقطار التعيس يمر ببلاد تعيسة يسكنها أهل الصعيد البراني والجواني. والطريق البرى أحياناً يوازى السكة الحديد. عن طريقه عبر الغزاة

ووجهتهم الجنوب طلباً لريش النعام والمسك وجلود التماسيح والماشية والذهب ينزعونه من أيدى النساء ورقابهن وبالهدف الحقيقي والرئيسي من الحملة، الأسرى .. يصدرونهم بيعاً وإهداء للدولة الإسلامية الواسعة لأنهم يحبون رقيق النوبة الأقوياء .. وربما استخدموهم في تشييد القلاع والحصون ودفعوهم للموت في حروب خاسرة. والقرى تتوالى و الهم يتكثف .. جبل السلسلة ثم معسكرات تهجير بلاد النوبة، بيوت مرصوصة بغير لمسة جمال ذات أسقف اسمنتيه عاكسة للحرارة ونساء ضامرات كالحات الوجوه، ينتظرن رجالاً تبعثروا فى أرجاء الدنيا سعياً وراء الرزق، وامه تتصدر المستقبلين. زغردت ونثرت البلح والفيشار فوق الرءوس. زفوه وأقاموا فرحاً كعادتهم حين يعود من لا أمل فى عودته. نحروا خروفاً وطأه ولطخوا بدمه الحوائط والأبواب. وجذبت الزغاريد خلقاً لا يحصى من القرى المجاورة، (العلاقي وكلابشة وقورته وماريا). قديماً قسموهم بين مصر والسودان كالغنيمة والآن هذا الموطن المسخ. أهل الشمال يتغلبون على الأزمات بالنكته وهنا يقيمون الأفراح. رقصت أمه فأبدعت رغم السن والتعب. اصطف الرجال فى مجموعتين متقابلتين، صفقوا غنوا. انتشر عشاق صوت عبده شندى مطرب الكنوز المغرد باحثين عنه حتى وجدوه يسكر قرب السكة الحديد، شدوه بالحاح ودفعوه للحلبة رغم ممانعته فلا يدرى ما الذى

اصابه منذ جاء أرض التهجير وهو الذى كان يسعى للأعراس ويفتعلها. أرتفع صوته العميق المؤثر بأغنية الوداع الكنزية والتى اشتهر بها فأبدع واسعد ثم ارتجل موالا حزيناً غني فيه للنوبة الغارقة والنخلة والظل والنجوع والمراكب والباخرة والفيضان والأسماك والمعابد والجبال والتماسيح وقبور الموتى والعذارى. جلس الرجال وتركوا له المجال مع ضارب الدف. ظل صوته المجروح يرتفع حيناً ليخترق حدود القرية جاذباً مزيداً من الناس. ثم يخفت ليصير همساً كالبكاء. خلت الدور من الأطفال والعواجيز والمرضى وزحف المئات ليزحموا الساحة الفسيحة بين (قرشة والعلاقى) وهم فى حيرة لا يدرون أهم يشاهدون عرساً أم مأتماً؟. حالة جديدة لم يألفوها أبداً ومن وسط النساء ارتفع نشيج أمرأة مهجورة هيجت الأغنية ذكريات تحاول نسيانها. أنما الذى فجر الموقف. وكشف صراحة عن حقيقة الحالة، هو المطرب عبده شندى نفسه بعد أن ردد اسم النهر طويلاً مقروناً بالغدر، ثم انهار جالساً وألقي بحفنة تراب فوق رأسه .. وغنى بصوت باك ..

« يا بـــلدي

« يا وطني

« يا دارى

« يا تراب أجدادي

« يا نخلاتي

« يا نوبة

« يا واحد .. يا واحد .. يا واحد .. »

دوت الأصوات الباكية تردد خلفه المقطع الأخير مصحوبة بعويل متقطع. وجاء ضابط نقطة كلابشة مستطلعاً سر هذا التجمع والبكاء الجماعي. وحاول العقلاء التدخل لوقف نزيف الدموع الذى سال بغير سبب مباشر مجرد، احتفال عادي بعودة غائب تحول فجأة لمأتم قومي. وتأثر جزولى بالموقف الحزين واتجه بعواطفه لرمال سيناء والواحات، تذكر ولديه، انفجر باكياً، وقام لممارسة طقوس المآتم، لف العمامة حول وسطه، تعكز بهراوة دار حول الجالسين معدداً ..

- يا دايم الله يا أولادى ..

وتبعه الرجال، كل الرجال، حتى الذين يجهلون حكايته، يرددون خلفه، الدوام لله، وانفلت زمام حوشية النور، عمة الولدين، وأم عوض شلالى، أطلقت واحدة من صرخاتها الممطوطة، (بيو .. بيو .. بيو) وقفزت من بين النسوة، نكشت شعرها، تربت وجهها، دبت بقدميها على الأرض، هاتفة: (أحيه .. أحي .. أحيه .. أحي .. أحيه .. أحي). وتبعتها النسوة، معظمهن، مشرعات أيديهن فى الهواء، وانتظمن خلف حوشية النور، مثلما كن يفعلن قديماً، وعجز

الرجال عن اسكاتهن، فأخلوا لهن الساحة، وبدت المسألة، كأنها مآتم قومي تأجل بعض الوقت لتشييع جنازة النوبة الغارقة.

ـ ٣ ـ

عبده شندى صار حديث قرى النوبة بعد مأتم البارحة، انتشر مواله بين الصغار والكبار، كلهم يغنون ويبكون حزناً، النسوة الجالسات المنتظرات يتذكرن فتدمع عيونهن، والكلمات تعود بذاكرة الرجال للسواقى والجذور فيصابون بالآسي والحنين. وعبده شندى نجح دون قصد فى قلقلة النفوس وهز المشاعر. وعوض شلالى يحاول جاهداً فلسفة مدلول ما حدث، لكن الأحزان والدموع والأغاني لن تعيد أرضاً غرقت، هوية طمست، فرساناً وئدوا، لأنهم هنا وليسوا هناك. لا شيء مما كان! وسيظل شندى يغني محولاً الأعراس لمآتم بلا جدوى. هنا قطار يصرخ كل حين ليلفظ مغترباً عشرات النازحين الهاربين من البطالة واليأس.

وقد جلس عوض شلالى مع خاله فوق (المصطبه) منقبضاً من هذا المكان المنفر يستقبل المهنئين بسلامته وسؤال يحيره: كيف رضخوا لهذا الواقع وتكيفوا معه؟ وقالت أمه أن عروسه السابقة تزوجت بعد طول انتظار وأنجبت ولدين وعليه بتعمير الدار وبعدها يختار العروس التى يريدها: (بس أنت شاور وأنا أعرسك احسن بنات قرشة). وقال خاله مشجعاً: (وأنا من جنية لألف). وهو فى لحظته لا

فكر فى بنات قرشه ولا بنات الحور. كان يستعيد فى ذهنه موال الحزن، يا بلدى .. يا نخلاتي .. يا أرض أجدادي. وجاء عباس توفيق الخفير وقال متصنعاً الأهمية:

- ضابط النقطة كلفني بأحضارك يا أستاذ.
- وهل سلمك الكلبشات ؟

تساءل خاله فى ضيق :

- خير يا عباس .. ما شأن الحكومة بنا ؟

وخرجت حوشية النور (*) بإبريق الشاي وسمعت جزءاً من الحديث، ضربت يدها على صدرها وقالت: (هيلوا .. هيلوا (**) .. فى أية يا عباس) ؟.

- ابنك يحارب الحكومة يا حوشية !

قال عوض شلالى متدخلاً :

- ليس بالضبط يا أمي ..

وملتفتا إلى عباس وموجهاً نظرة لخطأ التعبير :

- نعارض يا عباس .. ولا نحارب.

تركت حوشية أبريق الشاي جانباً وتساءلت بفزع :

- الحكومة ؟

وقال عباس توفيق موضحاً :

- سمعتهم فى النقطة يقولون أنك حرضت الناس أمس.

(*) حوشية النور : اسم سيدة.

(**) هيلوا .. هيلوا : صرخة فزع.

- انـــا ؟

وقال خاله نافخاً :

- الناس كلها تعبانه يا عباس .. كلنا وأنت مثلنا.

ثم بسط كفيه وقرأ الفاتحة على روح الولدين وبكى فأبكى معه الجالسين والمارين بالصدفه، الولد الأصغر كان عزيزاً عليه، أولاد الشمال الشياطين جروه معهم للمهالك. أنهار جزولى، قام لممارسة طقوس المآتم كالبارحة، أمسكوه، أجلسوه.

- وحد يا جزولى ..
- الدوام لله.
- كلنـــا لها.
- ربنا على الظالم.

وحوشية النور لم تتوقف عن البكاء، انتظرت عشر سنوات وليس لديها القدرة على المزيد. والحكومة عندها، وعند أهل النوبة قوة لا تقهر وليس بينهم من تصدى لموظف أعزل، فما بال ولدها. ألا يتوب ؟ قالت مستجدية :

- أرحم شيبتي يا عوض.
- لا تخـــافي يا أمي ..
- (يعني ما فى عوج) ؟
- مجرد إجراءات.

أبداً لم تقتنع، سارت خلفه حاسرة الرأس، حافية القدمين، مولولة، ردوها عنوة. وعوض شلالى دخل النقطة مع خاله واثقاً من سلامة موقفه لكن الضابط قابله بجفاء :

- أنت عوض شلالى ؟

ثم بلجهة متوترة لمرءوسيه: (عربية واتنين مخبرين بسرعة).

- ٤ -

ماذا يريدون منه؟ سؤال معلق شغله طوال الطريق من (كلابشة) إلى مديرية أمن أسوان. لا يذكر أنه تصرف بما يعكر الأمن فى بلد لا يتعكر فيه الأمن أبداً. واتصاله بالرفاق القدامى انقطع تماماً. فهل تراجعوا عن قرار العفو أم وقعت اضطرابات فى الشمال ويعيدون اعتقالهم كإجراء وقائي ؟. هو ليس خائفاً فلن يقع له أسوأ مما كان. إنما يشفق على أمه وخاله. أدخلوه على شرطي كاتب لاستيفاء البيانات قبل عرضه على المسئول الكبير. ابداً لن يتركوه فى حاله هؤلاء الأغبياء .. رغم خروجه من الملعب واختياره لمنفى الجنوب. أحس بكرب وفوران دم. لبسه شيطان التمرد، ساله الشرطي تلك الأسئلة الروتينية المملة :

- اســمك بالكامل ؟

لابد من التصادم، رد متحدياً :

- أسمى الحقيقي تريد ؟

- طبــعاً ..

- أكتب عندك .. اسمى التاريخى طهراقه، موطني بلاد النوبة، من أكلة أوراق التاريخ، كنا وجعلتونا لا نكون وقد جئت إليكم لرفع دعوى قضائية ضد بناة الخزان والسد ومطالباً بحدودى القديمة من أسوان حتى دنقلا العجوز لإقامة حكومة مؤقتة وحددت لون علمنا بالأسود ووسطه حدقة ونبل وليس لدينا مانع من الاتحاد مع الشمال وسنطرح ذلك على مائدة المباحثات .. أكتب يا شاويش، لماذا توقفت ..؟

الشرطي توقف فعلاً ونظر إليه بدهشة وارتباك. انتقلت علامات الاستغراب للشرطي الواقف انتباه والمخبر المرافق وضابط المباحث الذي ينقر المكتب بعصبية وضيق. قال الشرطي الكاتب ناهراً :

- ما هذا التخريف يا أستاذ ؟

- تكرهون الحقيقة ..

تدخل الضابط .. فتح ملف عوض شلالى، فحصه جيداً دنا منه، شم فمه، لم يجد تقريراً طبياً فى ملفه يفسر هذا الهذيان، ولا رائحة خمرة تبرر ما سمعه .. دعوى قضائية ضد من أقاموا السد؟ يا نهار أسود .. ضد من؟ هذا شيء يفوق الجنون بمراحل. تساءل مستوضحاً، مكذباً أذنية :

- ماذا قلت يا أخ ؟
- الذى سمعته حضرتك ..
وضحه لي ؟
- تحدثت بالعربي وليس بالرطانة.
- وهذه ليست لغة عربية يا شاطر!
- وماذا تكون ؟
- لغة ملاحيس .. مجانين .. مساطيل .. نحن فى مقر حكومي وهذا كلام تقوله فى غرزة أو بار .. سأعيد سؤالك بنفسي .. اسمك ؟
- لا تبدد وقتك يا سيدى .. فلن أغير كلامي ..
- ما هى حكايتك بالضبط ؟
- حـــكايتي ؟
- هذا الكلام العجيب ؟
- هو التاريخ ..
- يا الهى .. ماذا فعلوا بكم ؟
- قتلوا بحر جزولى وسرقوا عشر سنوات من عمرى ..
- طيب .. طيب .. استرح ورتب ذهنك لمقابلة البك المدير .. أنت مجهد بالتأكيد. منذ قرأ التاريخ هو مجهد.

زمان كان مطلبة العدالة والمساواة. الآن صار مسعاه عسيراً، صعباً،

مستفزاً، مدمراً، انتزع الجزء من الكل، الهوية، الفصل. يرسم ويخطط فى ذهنه ساحة المعارك القادمة، يعد الجيوش من (الكنوز والفادجا والمحس والدناقلة) يكر ويفر شرقاً وغرباً بين الأودية والجبال. وينتقل المراسلون لموقع الأحداث، تاره يصفونها بثورة أحفاد الدراويش أو ثورة الزنج. وهو يتمسك أن تتم المصالحة فوق السد العالي. وقد تفشل الثورة فتعلق الرءوس على أعمدة التلغراف بامتداد طريق الصعيد. صداع. صداع. عرضوه على المسئول بالملف والتقارير مغرور آخر مثل الذين التقى بهم في الحربي والواحات، تراجع الطاووس بظهر الكرسي الهزاز للخلف، قال مهدداً :

– اسمع يا ولد .. بمنتهى الصدق .. أنا لا أحب الشيوعيين رغم تصالح الحكومة معكم. وكان رأيي دائماً هو إعدامكم لأنكم مرتدون والدين يبيح لنا دمكم. وأستطيع مسحك من الوجود لو ركبت رأسك، وعندي تقارير مؤكدة بأنك انفصالي مهيج، وهذه تهمة أشنع من الأولى لأنك تعرض السلام الوطني للخطر. ومن صالحك التعاون معي، حدثني بصراحة عن مشاريعك وأفكارك ..

– بصراحة يا سيدى ..

– هذا أفضل ..

– أعيدونا لموطننا القديم ..

– هذه سياسة عليا ..

- أعطونا أرضاً صالحة نزرعها ..
- وهذه في الخطة ..
- أقيموا لنا مصانع ..
- سـنحاول ..
- اصرفوا لنا تعويضاً يعادل حجم تضحيتنا ..
- ما أكثر مطالبـك !
- ألسنا أحق بالعناية من المعابد والتماثيل ؟
- يا ابني هذه أمور يقررها رئيس البلاد .. ويبدو أنك في حاجة للتأديب ..
- فعلوا هذا من قبل ..
- ماذا تريد بالضبط ؟
- قومى متعبون ..
- تحدث عن نفسك ..
- هم خرس .. قطع الغزاةَ السنتهم ..
- أخرس ..
- أمر مولاي ..
- أن أردت العودة للبلاد القديمة .. سنعيدك فوراً .. لكن بمفردك، يا حضرة الضابط، جهزوا لنشاً وخذوا هذا المعتوه وألقوا به في أبعد قرية ببلاد النوبة القديمة بين الكلاب المسعورة والوحوش.

عوض شلالى اجتاحه رعب مفاجئ بعد خروج الضابط لتنفيذ

الأمر الصادر، تصور نفسه وحيداً أعزلا تنهشه الذئاب. نهاية درامية أسوأ من الواحات والموت ضرباً بالسياط. وهذا طاووس أهوج .. يستطيع. تساءل بصوت مرتعش حاول تغليفه بالسخرية :

- سيدى يمزح بالتأكيد !
- الحكومة لا تعرف المزاح يا شاطر ..
- وهل هذا إجراء قانوني ؟
- نحن القانون يا فالح .. قانون (قال) وهل أضع منصبى ومستقبلى تحت رحمة صرصار مثلك .. لأ يا شاطر .. العب غيرها.

انقطع الحوار برهة، وهل يكون حوار بين وبين. لواء شرطة. قادر. وهذا المقص فوق الكتف لم يخترع عبثاً. القص. وقد قتلوا بحر جزولى ببساطة.وهو يرحب بالموت لكن ليس قبل الفعل. أفاق من سرحته على الصوت المنتصر ..

- ما رأيك الآن .. بإشارة من يدي ونصدر نشرة بفرارك.
- الذى تراه جنابك.
- عليك نور .. نتفاهم أفضل.
- على ماذا ؟
- اسمع يا ابني .. ليس بيننا خصومة قديمة، وهذه أول مرة أتعامل فيها معك رغم وجود اسمك في القائمة السوداء. وكان بوسعى ابعادك من محافظة اسوان كلها منذ لحظة وصولك. ولا شأن لى

بماضيك الأحمر، إنمايقلقني حاضرك الأسود. وقد أوصاني بك عمدة بلادكم، ولعلمك كل عمد ومشايخ وأعيان النوبة أصدقائى لأنى عملت في شبابي مأموراً لمركز (الدر)، فأحببت أهل النوبة وأحبوني وأشهد لهم بالأمانة والتقوى وسمو الأخلاق، ولا أدرى من أين خرجت لى. ولولا علاقتي السابقة بقومك، لسلمت أمرك للمباحث وانتهيت منك. أرجوك .. تعاون معي ولن تخسر، سأعيدك لوظيفتك أو عمل آخر تختاره. هه .. ماذا قلت :

- وما سبب هذا كله ؟

- التقارير تقول أنك سبب مآتم الأمس ..

- يا ســـيدى ..

- خلاص .. انتهينا ..

تساءل الضابط متعجلاً :

- بماذا يامر الباشا ؟

- سأمنحه فرصة أخرى .. وعلى مسئوليتي ..

- حظك يا أستاذ .. أشكر الباشا.

حين غنى عبده شندى مواله الحزين وأدمع العيون وأدمى القلوب، أكان هو المحرض؟ حين تجمع سكان القرى وأقاموا مأتماً .. أكان هو الداعي ؟. عاودته تقلصات المصران العصبي. قطع كورنيش اسوان كالتائه. هذه المدينة تثيره دائماً. كان لها دور مشبوه في علاقتها بالجنوب، رأس جسر لكل غزاةَ. وقبائل ربيعة قفزت من

هنا. يسمونها باب النيل وقد كوفئت على دورها فبنوا الخزان والسد بعيداً عنها. أحس بحنين جارف لرؤية النوبة قبل الغرق النهائي. في اليوم التالى راوغ البصاصة واستقل لنشاً يعمل بين السد وأبى سمبل لنقل خبراء اليونسكو يقوده بحار نوبي. شاهد على الضفتين قرى كئيبه منزوعة الأبواب. أثناء العودة استأذن البحار مرافقيه واقترب من الهدف، موطن عوض شلالى، قرية قرشة المواجهة لجرف حسين والمتآخمة لماريا. قرية كنزية تنقلت ثلاث مرات مع تعليات الخزان واستقرت هناك فوق الجبال ولن تلبث أن تغمرها مياه السد بالتدريج هنا الطفولة والذكريات. لعب وسبح وصنع من طمي النيل بيوتاً وعرائس. طارد اسراب الكركي الآتية من بلاد الصقيع، وقد امسك مرة بطير ووجد في ساقه سواراً حديدياً عليه كتابة بلغة يجهلها. ذهب بالطير لخوجة مدرسة قرشة مليجى أفندى وقد ظنه من طيور الجنة أو عفريتاً. قال الخوجة أنها رسالة من جمعية تعني بالطيور وتريد معرفة أين هاجرت هذه الطيور؟ مليجى أفندى هذا كان يحبه ويؤثره على باقى الأطفال ويرسله للقرية لشراء البيض والدجاج وكان يتعلم منه الرطانة ومرة سأله عن معني (هانوا دول) فأفهمه أنها تعني الحمار الكبير .. ضحك .. ثم غضب .. وأقسم أن يفصل فراش المدرسة أو يكسر رأسه لأنه نعته بهذا. صادقه وأحبه وكان يزوره

بعد أن كبر وأنتقل لابتدائية (الدكة) (*) ثم معلمين (قورته). وجد عنده صنوفاً من الكتب وقرأ بعضها، روبنسون كروزو ومخلوقات كانت رجالاً ودواوين شعر لم يفهم الكثير منها. ومرة قرأ كتاباً اسمه على ما يذكر دروب الجوع، عن قوم جاعوا فأكلوا القطط والكلاب والحمير والجيفة، عاد إليه فزعاً مستفسراً عن حقيقة الأمر، فقال له نعم، وقد حدث هذا في مصر أيضاً وهو مكتوب في تاريخ الجبرتى. وكانت أمه تحذره وتخوفه منه لأنه مصراوى وأعزب ولا يجوز للصغار أن يخالطوا الكبار الأغراب، وكلما عاد من عنده كانت تسأله ماذا قال لك وهل وهل. لكنه أبداً لم ينقطع عن زيارته، سراً أو علانية، ورجال البلد ناصبوه العداء وكتبوا ضده الشكاوى والعرائض حتى نقلوه لأنه كان لا يصلى ولا يصوم رمضان وعلم الأطفال أن الشيخ عبد الرحيم صاحب الكرامات والقباب الخمس في البر الغربي كان رجلاً عادياً لا يشفى أو يغيث، ولهذا قالوا أنه كافر رغم دينه الإسلامي. وهو يذكر عنه أشياء طيبة فهو الذى غرس في رأسه بذور المعرفة وقد بحث عنه طويلاً أثناء تردده على القاهرة دون جدوى. لكنه رآه مرة واحدة أثناء ترحيله لمعتقل الواحات، وسأل عنه معظم المساجين، ولكنهما أبداً لم يلتقيا وجهاً لوجه.

دخل اللنش ببطء في خور (العليات)، داهمته الذكريات.

(*) الدكة وقورته : قرى نوبية.

تزاحمت، تذكر أسماع النجوع القديمة، (الجوهراب. الدنجراب، الشدناب، الحرازة، كلوا دول، أمبوكول، هميمطر، نجع العرب، العلياب جوهرة قرشة وبيت عموديتها).. اسماء عربية وفرعونية ونوبية وبعضها بلا معني. بيوت تعانق النهر وأخرى قرب الجبل. وفى الصيف، حين يهبط النهر، وتبان الأرض، كان ينزل مع أمه لحش النجيل ونثر البذور، يزرعون ولا يحصدون الا نادراً. المجد والرخاء للشمال، والموت بالفيضان للجنوب. كم مرة فجعوا بالفيضان على غير موعد. تلك الأيام لا تنسى، قال للبحار.. اقترب، ظل يدنو لنهاية الخور عند الجسر الموصل لنجعين. نزل، صعد، تسلق ربوة. التقط له أحد الخبراء صورة. بعد جيل آخر سيأتي علماء الآثار والأجناس ويكتبون الأكاذيب. توغل قليلاً. تراجع هلعاً والكلاب المسعورة تجرى خلفه. تلاحقه. ألقي بنفسه في النهر ولاذ باللنش. وهم يتجهون شمالاً، سأله أحد الخبراء عن الهدف من رحلته. تجاهله وأغمض عينيه مستدعياً كلمات شندى، يا بلدي، يا بلدي. وكلما أوغلوا شمالاً، تبتعد القرى، تتلاشي، ويتلاشي هو أيضاً ويتبدد، ولم ينتبه لنفسه إلا أمام البناء الهائل .. السد، فأحس بانقباض خانق.

— ٥ —

لما عاد إلى أسوان، كان مكتئباً، ابتاع زجاجة عرقي وغادر المدينة بسرعة وركب القطار. شرب وشرب حتى فرغ منها. هبط

من القطار يترنح يغني: يا بلدي. وجد شندى أيضاً يسكر وحيداً تحت نخلة عجفاء ولن يكف عن غنائه حتى يجن أو يموت ولن يستدعوه للأعراس بعد أن صار مبعثاً للنكد. تجاوزه وسار حائراً. وجد زفة عابرة، طبول وزغاريد ورقص. وقف يتفرج حانقاً، البلاد تغوص هناك وهم يمرحون. مر الموكب أمامه بصخبه ورقصة، ودون ان يعي، أو يقصد، اندفع وسطهم يصفق ويرقص بجنون، ناسياً كل القواعد، النسوة ابتعدن عنه فزعاً، أزاحه الرجال بعيداً، وجد نفسه خارج الحلبة والموكب يبتعد، فجلس وحيداً يبكي من شدة السكر والقهر.

- ٦ -

هى الحرب نشبت في الزمان الخطأ وهو الفارس الأعزل لا درع يحمى صدره ولا هدف محدد يسعي إليه. نام زمناً مع أهل الكهف وأخذته صحوة بعد فوات الآوان. فليس هذا وقت نبش تاريخ يحتاج لدقة الفحص. ولا هؤلاء المعاصرون هم الذين دمروا الجنوب وأفنوا فرسانه. لكنه الغيظ يملأه ويحرمه راحة البال. وهذه معركة خاسرة بكل المقاييس، فأمامه دولة مدججة بالسلاح وأهل النوبة من الطيبة والغفلة بحيث لا يبغون من الدنيا سوى الستر وحسن الختام. ومع ذلك، يجوب القرى ويدخل المدارس والمساجد والبيوت والأسواق ملتقياً بالعمد والمشايخ والمدرسين والطلاب ويخوض معهم

نقاشاً ينتهي به للصداع. فليس بينهم من يعي التاريخ المنسي أو يتحمس له. أهو حالم أم معتوه ؟! قال العمدة لأمه ناصحاً:

- يا حوشية الحكومة تراقب ولدك .. عقليه ..

وحوشية زهقت منه، فهذا ولد عجيب ومخه أعجب، صنعت له الأحجبة ودستها له حيث ينام وحيث يقضى حاجته. وعرض عليه خاله كل مدخراته لافتتاح مشروع أو الزواج. وقال لها عباس توفيق محذراً : يا حوشية الحكاية دخلت في الجد والبلد ازدحمت بالأغراب المتنكرين وهم في الأصل من البصاصة الذين جاءوا يطلبون أخبار ولدك، وأشار لها على تاجر الجلود وبائع البرسيم والأسكافى وحلف لها بدين النبي بأن واحداً منهم يعرفه وغمز له بأن يسكت، فقد رآه مرة عند ضابط النقطة. وحوشية استغربت من أمر كل هؤلاء الذين يتتبعون ولدها. فماذا فعل؟ فهو ليس قاتلاً ولا سارقاً أو أكل مال أحد أو هرب من الجهادية أو استولي على أرض الحكومة. ولم تصدق كلام عباس توفيق واتجهت لبائع البرسيم وسألته بسذاجتها وعبطها أن كان بائع حقيقى أو (ميسي كول (*)). وسمعها تلميذ مار بالصدفة فجذبها بعيداً وقال لها يا خاله حوشية المخبر لا يعلن عن نفسه. لكن سؤالها صار نكته اضحَكت الناس في زمن عز فيه الضحك: هل سمعتم ما قالته حوشية النور للبائع.. حلفت الا تشترى منه ما لم يعلن عن نفسه، أهو بائع برسيم أو ميسي كول ؟. والناس في قرية قرشة

(*) الميسي كول : المخبر.

والقرى المجاورة كفوا عن الثرثرة. وأن تحاوروا لجأوا للرطانة الملغزة. وندر تجمعهم وارتيادهم السوق والمحطة إلا للضرورة. وصار كل الأغراب من (الميسي كول) طالما ينتمى للجنس الأبيض. وقال إبراهيم عيدون ناظر مدرسة كلابشة أن الوزارة نقلت إليه مدرساً زائداً عن الحاجة وحين ذهب للمنطقة مستفسراً أفادوا بأن تلك أوامر عليا. وعبده شندى هو الوحيد الذى يتحرش بالمشكوك في أمرهم، كلما قابل أحدهم قال له بصوت مرتفع قاصداً أضحاك الناس: (شنو حالك يا هانوا دول). لكنه كف عن مزاحه الثقيل بعد أن اشتبك معه أحد الأغراب وكاد يقتله ضرباً، وأتضح أنه ليس شمالياً رغم لونه الفاتح، لكنه جنوبي من أم مصرية ويجيد الرطانة. لكن كلمة ((هانوا دول (*))) بمعنى الحمار الكبير، صارت صفة للبصاصة بدلاً من الميسي كول. وبعد صلاة يوم الجمعة، تداول الناس أمر البلاء الذى حط عليهم مع مجيء ابن حوشية. واتفقوا على اللقاء في بيت العمدة بعد صلاة العشاء كعادتهم حين يجد ما يستحق الأخذ والرد والتشاور. شربوا الشاي، تبادلوا السجائر، خاضوا في سير اللذين واللاتي. ثم عرجوا لموضوع الساعة، حكاية عوض شلالي الذى سيذهب بالناس في ستين داهية. وتعكر جو الاجتماع بظهور الدمرداش دون دعوة، لأنه سكير ومتطرف ولا وزن له في مجالس الجد. ويرتزق من التهريب وجيوب المغتربين العائدين وسليط اللسان.

(*) هانوا دول: حمار كبير.

ردوا سلامه بفتور واستمروا في حوارهم:

- عوض شلالى هذا يا جماعة .. ضال ومضل.
- أنه يفسد عقول الأولاد.
- وهل نحن كما يصفنا ؟
- ويريد منا محاربة الحكومة.
- لابد من حسم الأمر .. والليلة.
- تصوروا أبني المفعوص يزعم أننا سبب الكارثة.
- أية كارثة ؟
- قبولنا مسألة التهجير ..
- هذا كلام ابن حوشية ..
- والعمل يا ناس ؟
- العمدة يتولي أمره ..

وتكلم الدمرداس بعد صمت طال، قاطعهم بحدة:

- يا ناس الله .. ابن حوشية ولد متعلم ويريد مصلحتكم رد الحاج أحمد عباس ساخراً :
- مصلحة من وهو لم يركعها ولا أكمل نصف دينه مثلك ..؟

الدمرداش يهاجم بقسوة :

وما دخل الصلاة والزواج في موضوعنا، في بلدنا من حج مرات ولكنه يأكل مال النبي، والنبي ذاته لو كان يؤكل.

يقاطعه أكثر من صوت :

- عيب يا دمرداش.
- لا تخطئ في حق أعمامك وأخوالك ..
- وبيننا من هو أكبر منك سناً ..
- ومقاماً ..
- ولد (ظربون) ..

تجاوز الدمرداش سيل الاهانات وقال بصوت هادئ وحزين :

- يا جماعة الولد يطالب لنا بأرض زراعية صالحة ومصانع وتعويض مناسب ..
- هذه مسئولية العمد والنواب والجمعيات النوبية في مصر ..

الدمرداش يقاطع، يرتفع صوته زعيقاً :

- عمد ونواب الحكومة .. بماذا يفيدوننا، وجمعيات نوبية (لظ فش) ليس لها دور سوى بناء القبور ودفن الموتى وكل علاقاتها بنا مساهمات بملاليم .. وهل بلغ بكم الجبن لدرجة التآمر على أحد أولادنا. (أخص عليكم) ..

اندفع العمدة بعصاه نحو الدمرداش. حالوا بينهما تسابوا. تعايروا. تعاتبوا. قرأوا الفاتحة. حوقلوا. بسملوا. ثم استعاذوا بالله من الشيطان الرجيم واستأنفوا الحوار. قال الحاج أحمد عباس :

- اسمع يا دمرداش، هذا الولد مجنون فعلاً، بالأمس جاءني وقال لي يا حاج أنت رجل متنور وصاحب رأى والناس يثقون فيك، ولابد من مساهمتك في تنوير العقول، ثم كلمني كلاماً كله الغاز واحاجي، وطلعت من هذا كله بأننى أمام مجنون.

- ماذا قال لك يا حاج ؟

- كلام (خارم بارم) مثل دولة النوبة ورماة الحدق وكاشتا وطهراقة ودنقلة ومواضيع وأسماء تذهب بالعقل.

- وما شأننا بدنقلة هذه .. ؟

- يقول أنها كانت عاصمة دولة النوبة المسيحية .. وهل كنا نصارى أيضاً ؟!

- هذا قوله ..

- لا حول الله ..

- طول عمرنا مسلمين وموحدين بالله ..

- الكافر ..

- عيلة كلها مجانين ..

- اسمعوا يا جماعة .. إحسن حل .. نطرده ..

تساءل الدمرداش بدهشة :

- تطردوه ومن بلده .. عليكم لعنة الله ..

- أنت الملعون ((يا عويل)).

- الملافظ سعد يا دمرداش ..

الدمرداش معاتباً :

- يا ناس .. افهمونى، مفروض نقف مع عوض شلالى ونسانده ..
- في ماذا ؟
- حقوقنا يا ناس ..
- يعني نحارب الحكومة يا دمرداش .. أنت أصلك مقطوع لا زوجة ولا ولد ولا وظيفة، وهذه أول مرة نراك فيها متحمساً .. لكن للباطل ..!

الدمرداش متهكماً:

- والله العظيم أنتم أكبر ناس خوافين في الدنيا ..
- وأنت ؟
- أعطوني بندقية وجربوني ..

العمدة يرد عليه ساخراً، ومشيراً لحادثة قديمة :

- أنت زول لسان وكرباج هجانة يقول (يا فكيك) وإذا لم تستح، قل ما شئت .. أين أنت يا نخلة على شامي؟

الحاج أحمد عباس خرج عن وقاره وقهقهة طويلاً، انفجروا خلفه ضاحكين مثلما كانوا يفعلون عند شاطئ النيل (ذكر نخلة على شامي) عادت بهم للوراء، سواقى ونخيل ونجوع وقبور وحكايات. كان الدمرداش أيامها شاباً جسوراً يعمل بمركبة في نقل المهربات بين الشلال وحلفا مدوخاً جمارك الدولتين، وكان مشهوداً له بالجرأة،

يناوش التماسيح، يسبح في النهر متحدياً الدوامات، يصطاد الثعابين والعقارب، يسير بين النجوع ليلاً بمفرده، يصارع الشبان ويصرعهم. وقيل أنه لا يهاب الجن ساكن الخرابات والمعابد، وذات ليلة، كانوا في عرس بقرية ماريا، راهن انداده على قطع المسافة بين القريتين ليلاً وبمفرده، هو ودابته وهراوته ودف يضرب عليه يخيف به الذئاب. الرجال سمعوا بالرهان وتدخلوا، زجروا، نصحوا. لكنه ركب رأسه. وبمجرد خروجه من مظلة الكلاب النابحه، هاجمه جيش من الذئاب الجائعة، يضرب على الدف فتبتعد وتعوي ليأتي المزيد من الذئاب حتى تجمعت كل ذئاب الجنوب خلفه. تذكر أنها تخاف النار فأشعل عمامته، ثم جلبابه، وانتهى بالسروال واستطاع بالكاد الوصول لنخلة على شامي تاركاً دابته للوحوش. ووجده الرجال الذين هرعوا لنجدته فوق النخلة عارياً وقد فعلها على نفسه، من يومها .. سموه (بالظراط) مما دفعه للانسحاب والكف عن الأعمال الجنونية. أما مسألة كرباج الهجانة، فليس في بلاد النوبة من لا يخشاه بعد أن تم ترويضهم بعد عشرات الغزوات حتى ولد جيل مرعوب يضرب السلام للعسكري قبل الضابط. ويروى المسنون، نقلاً عن أجداد الأجداد قصصاً مروعة عن طوابير الجند الزاحفين جنوباً يمسحون في طريقهم الأخضر واليابس ومن يقع في أيديهم يأخذونه أسيراً لبيعه رقيقاً. فكانوا يهربون بعيالهم ومواشيهم للجبال حتى تنزاح الغمة. تلك الأيام الصعبة، علمتهم طاعة الحكومة ظالمة أو عادلة. والعمدة، بعد

إسكاته للدمرداش، ارتفع صوته دون معارضة : اسمعوا يا أهل الله .. هذا الولد ابن حوشية مجنون .. إذ كيف يحرضنا على حكومة نقلتنا من الجبال وأفواه الضوارى وأعطتنا بيوتاً جاهزة وتعويضات واحتفلت بقدومنا وشيدت لنا المدارس والمستشفيات وليس من طبعنا نكران الجميل. هل نسيتم أفعال الملوك والسلاطين والإنجليز بعد بناء خزان أسوان. فلماذا يريد منا محاربة من وقفوا معنا. وما الضرورة؟ أهل مصر .. أهلنا. يؤمنون بديننا ونأكل من خيرهم وقبور آل البيت هناك. ودنقلة التى يبشرنا بها كل رجالها بوابون في مصر وهم أجوع منا. والذى يحكم مصر الآن ولد صعيدى فارس، وبين الكنوز وأهل الصعيد وشائج قربي. انظروا ماذا قدم لنا هذا الرجل .. الماء النقي والكهرباء والأمان .. قولوا الحمد لله ..

- احسنت يا عمدة ..

- هو الصواب ..

- كلام مفيد لمن يعيه ..

وتدخل الدمرداش ساخراً :

- وكأننا نسمع إذاعة صوت العرب!.

رد العمدة بضيق :

- يا أخى دعنا لحالنا وتمتع أنت بإذاعة لندن ..

وقال الحاج أحمد عباس منهياً هذا الحديث الذى طال :

- وحدوا الله .. كل واحد يسمع الذى يعجبه .. أطلب لنا شاي

يا عمدة .. الفاتحة يا مسلمين وبينما كانوا يتجادلون ويقرأون الفاتحة، كانت سيارات الشرطة قد حاصرت بيت حوشية النور ومداخل القرية. وانتشر العساكر داخل البيت، يفتشون عن عوض شلالي ومنشورات وأسلحة لا وجود لها وسمعوا صرخة حوشية، وقبل أن يرسلوا من يستطلع الخبر، جاء عباس توفيق مرتعشاً، مرتبكاً ليبلغ العمدة بالواقعة. تسلل الرجال متسترين بالظلام. والعمدة ذهب للقاء المغيرين بحكم منصبه، فقال له رئيس القوة مهدداً:

أنت العمدة وعليك أن تحضر لنا عوض شلالي حالاً ومن تحت الأرض. أما الدمرداش، فهو الوحيد بين سكان القرية المرعوبين الذى تشجع متقدماً من المغيرين ووقف غير هياب يريد أن يفعل شيئاً ولا يستطيع، لأن القوة كبيرة والسلاح مشهر والعمدة نفسه واقف يرتعد يكاد يبول على نفسه، ويستجدى حوشية أن تدلهم على مكان ولدها وهى تحلف له أنه ذهب إلى أسوان. والدمرداش أحس بالعار وهو يرى العساكر يهينون حوشية وأخاها ويرمونهما في البوكس كالزكايب. وأخذ يسب الحكومة وأهل البلد في سره. ولما رآه كبير المغيرين، نهره شاتماً (أمشى العب بعيد يا وله). الدمرداش تقدم خطوة ورد بجرأة : (أنا راجل ما ولد). وصاح كبير المغيرين غاضباً:

- خذوه ابن الكلب هذا ..

وحين تقدم منه عسكرى ليضعه في البوكس، تراجع للوراء

سابا بالرطانه، سباباً فاحشاً، لو عرف الضابط معناه، لأمر برميه بالرصاص فوراً . واستغرب العمدة ليلتها من قوة ثبات الدمرداش، ورده على البك الكبير والذى لو شخط في أسوان، ارتعد المرءوسون في كوم أمبو. لكن الذى قام به الدمرداش بعد ذلك، صارت حكاية تروى مقرونة بالدهشة والتقدير.

- ٧ -

لو أن الدمرداش الذى نعتوه بالخواف انسحب لداره ونام مثل غيره بعد سب المغيرين بلغة يجهلونها، لما كانت الحكاية تستحق مجرد التعليق لأن أهانة الغير بالرطانة ليس عملاً بطولياً، فالنساء يفعلن ذلك مع الغرباء والباعة حين يتعرضن للمعاكسة أو الغش. لكنه أحس بغيظ شديد لما شتمه الضابط ونعته بالولد مع أنه أكبر سناً. والأفظع إهانته لحوشية النور على مشهد من العمدة. ولو فعلوا هذا مع أمرأة من الصعيد ..لابادوا أفراد القوة كلها. تمني ليلتها لو كان عنده بندقية. وفكر أن أحسن وسيلة للرد على هؤلاء المغرورين، هو افشال مهمتهم وذلك بانقاذ الولد الشجاع عوض شلالى من أيديهم .. لكن كيف وهو يجهل مكانه ؟. فكر أنه لو كان في أسوان وسيعود الليلة لابد أن يأتى بسيارة أجرة، لأن آخر قطار اتجه شمالاً منذ ساعتين. ورغم انتشار العساكر والميسي كول (*)، تسلل بطريقة ما

(*) الميسي كول : المخبر.

وخرج ليكمن قريباً من الطريق، وفى المنطقة التى تتوقف فيها سيارات الأجرة لانزال ركاب القرية. والصدفة وحدها، وحظ الحكومة السيئ أوقف سيارة عوض شلالى على بعد أمتار منه. جرى نحوه، احتضنه، دخل به خلف بناء مهجور وأقنعه بعدم تسليم نفسه لهؤلاء الكلاب. وهما يسيران عبر الطرق الجانبية، تشاورا. تحدثا. فكرا. وعرف منه سبب هيجان الحكومة، لأنه دعا لمؤتمر شبابي كان المفروض عقده غداً بقرية كلابشة. وفكر الدمرداش في كيفية حماية هذا الولد واهتدى للحل. فاتجه به إلى بلده (سلوى) وطرق باب نديمه وصديق صعلكته ربيع السلواوى وقال له بعد السلام: يا ربيع يا سلواوى جئنا نستجير بك فأجرنا لأنى لم أجد من هو أرجل منك بين معارفي وأنت سداد وسيد الرجال لأنك جعفرى وأنصارى وهذا الولد جدع مثلك تخفيه عندك وتحميه .. وأنا انتظر منك الكلمة. وقال ربيع السلواوى ضارباً يده على رقبته: حبابك عشرة أنت وضيفك وأنا أعطيك الكلمة قبل أن أعرف من يكون ولا ماذا فعل. والكلمة عندنا بالرقبة ثم نادى زوجته النائمة وأمرها أن تجهز أغلى ما عندها للضيوف مؤقتاً وسحب خروفاً وذبحه وقال فرحاً: مرحباً وأهلاً بكما رجال الكنوز، أنا وأهلي كلنا فداكم، كان جدى رحمة الله يوصيني بكم وحكي لى أنه قتل مره جابياً تركياً وفر إلى بلاد النوبة ومكث هناك معززاً مكرماً. وأنا أرد لكم الدين. ثم أخرج بندقيته من مخبئها وعبأها بالرصاص وقال يا دمرداش.. من الآن ضيفك لن يمسه أحد

إلا على جثتي. ولعدة أيام تنقل فيها الدمرداش بين (سلوى [*] وقرشة ودراو) يقابل الأدلاء والبشارية والقوافل حتى استطاع بعد جهد مضن عقد صفقة الخروج. وظلت الحكاية في طى الكتمان حتى كشف تفاصيلها واحد من أربعة، حوشية النور أو أخوها جزولى وربما ربيع السلواوى. وقد يكون الدمرداش نفسه، سكر مرة وأفلت لسانه بالسر من باب التفاخر.

- ٨ -

ليلاً كان الوقت حين خرجوا، انحرفوا شرق خزان اسوان. سلكوا طرقاً غير معبده. بعيداً عن النيل توغلوا. تسلقوا جبالاً ووطئوا صخوراً وعبروا وديانا وهدفهم وادى دهميت، يستريحون هناك ويتسلمهم دليل آخر يواصل بهم رحلة الهروب إلى أبى حمد ثم يتفرقون داخل السودان. وعوض شلالى الهارب، الخارج، ينفصل عن ماضيه كله بحلوه ومره، بجنوبه وشماله متجهاً لمنبت رماة الحدق، أقصى الجنوب. لا يدرى عن غده شيئاً، همه الأول ، الأفلات من غول الاعتقال وقد جربه عشر سنوات. يرتدى زياً بشارياً مضحكاً للتمويه، شبشباً جلدياً وجلباباً أبيض بجيوب خلفيه وعمامه كالتل وسوط. وكلمات سودانية تعلمها بسرعة لزوم الردود السريعة. ورفاق الطريق، شباب نوبيون معظمهم حملة دبلومات أنهوا دراساتهم

---

[*] سلوى : قرية في مرز كوم أمبو.

وبدلاً من تسليم أنفسهم للجيش، اختاروا الفرار وفضلوه عن معسكر تجنيد منقباد. ليس لهم موقف مناهض للحكومة، ولكنهم ينشدون المال والعمل في بلاد النفط، يدخلونها بجوازات سفر سودانية تسهل تنقلهم بين الممالك والامارات دون عائق.

قبل الفجر بقليل، هتف الدليل البشاري الخبير، حاد البصر محذرا: (أقيف يا زول). وقفوا. قعدوا. توجسوا.استعدوا للردود أو الفرار جرياً. والدليل سار بمفرده فاحصاً الأرض، مطلاً على وادى دهميت من علِ، وعاد إليهم مع الشروق عابساً: (ما في كلام ولا دربكة، كله يرقد ينوم). وعرفوا منه أن عساكر الهجانة يكمنون عند البئر ولن يبرحون حتى يقعوا على صيد من الفارين. والاتفاق بين الدليلين عند البئر. والدوران حول الوادى، يستغرق وقتاً وجهداً، ناموا.قلقوا. قاموا. أكلوا. فكرروا. زهقوا. ثم نفد صبرهم وقرروا عبور الوادى ليلا. لكن الدليل المجرب، خالفهم، لأن الهجانة، سيقطعون (الجرة [*]) مع الفجر ويلحقون بهم بجمالهم الحكومية السريعة. وهم أمانة في رقبته، لأن بين الفارين، أبناء أصدقاء وعمد وصديق الدمرداش. صباح اليوم التالى، موعد لقاء الدليلين والموقف كما هو. بحثوا عن حل ما عدا العودة. قلة فكروا في النكوص وتسليم أنفسهم لمنقاد بارداتهم أفضل من العودة مخفورين. والدليل دخل معهم الخط .. قال : (أن كان معاكم قروش زيادة .. أنا بمشى ليهم بحق

---

[*] الجرة :الأثر

الدخان). وكم يبلغ الدخان هذا يا بشارى؟. تشاورا وجمعوا ما لديهم من فائض. عدة البشارى وقال: (قليل .. زودوه). فأكمله له عوض شلالى. أنزلق للوادى بخفة ونشاط، تتبعه متوجساً مراقباً ورآه يجالس العساكر ويشرب معهم الشاي ويسامرهم. عاد البشارى بعد نجاح مهمته الدخانية. كم دفع لهم. هل قاسمهم؟ هل خدع الطرفين؟. لكن عوض شلالى كان واثقاً منه، فهذا صنف من الناس لا يعرف السمسرة والمراوغة. الصحراء والصدق. لو قال .. لا. لن ترغمه قوة للرضوخ أن غضب، استل سيفه وقطع به الرقاب. وقد بات ربيع السلواوى بجواره الليالى وسلاحه جاهز. الرجال الندرة. الصخور. أصحاب الكلمة، فلأى سلالة حقيرة ينتمى ذلك الرفيق الواشي ؟. سؤال محير، فهو أبداً لم يستطع تحديد شخصية الشمالى، يسمو أحدهم لدرجة النبوة وينحدر آخر لأسفل سافلين .. فأى نوع من البشر هم يا ترى ؟. شاهدوا العساكر يجلون عن البئر والوادى كله فعبروا جهاراً نهاراً. التقى الدليلان. تعانقا. رطنا. تم التسليم. هم الآن عهدة في يد الدليل الجديد جاه الرسول الجن كما يسمى نفسه، شيطان صحراوى قلبه من جرانيت. خبير الجنوب وأقتفاء الأثر. يخترع طرقاً جديدة عبر الارتفاعات الشاهقة والوديان الشديدة الانحدار. يصعد جبالاً وينزل سهولاً ويغني أغانى لا يفهمونها. هذا الفارس هو أحد أحفاد البجاو الذين دوخوا المنطقة زمناً، أغاروا على النوبة وأسوان والصعيد ودارت بينهم وبين العرب معارك دامية فهزموا واسلموا

وأنقسموا عبابدة وبشارية. لكن البشارى أحتفظ بفروسيته وسيفه وقوته. بينما العبابدة وأهل النوبة .. استكانوا. وصلوا بئراً يسمى أم عسيره. جلسوا للراحة. وقال عوض شلالي لنفسه: يا له من رجل فريد الدمرداش ، خاطر بنفسه وأخفاه ودبر له عملية الخروج رغم أنه من قبيلة المكناب المنافسة على العمودية ولا تربطه به علاقة خاصة، لا لعب معه صغيراً ولا زامله في الدراسة ، أنه قرشاوى نوبي كنزى وكفى. أين كان؟ إنما في الشدائد تظهر المعادن. ولابد هناك غيره ينبغى النبش عنهم. هو الخوف اللعين يحجب ظهورهم. خوف وراثى خبيث متأصل.ومن أخطر ما قام به الدمرداش، اللقاء الذى دبره له مع أمه وخاله ليلة الخروج. امه كانت متهالكة، محتبسة الصوت. قال خاله معاتباً:

- حرام عليك يا ولد أختي .. أمك لا تعرف النوم ..
- هذا قدرى ..
- نصحناك يا ولدى ..
- ماذا فعلوا معكما ؟
- أنت أدرى بهم ..
- ماذا فعلوا
- حبسوني يومين وضربوني وأهانوا أمك ..
- الكلاب ..
- ومازالوا يترددون على القرية ..

- تركتها لهم ..
- وربما يعزلون العمدة ..
- وجوده كعدمه ..
- نريد الاطمئنان عليك ..
- إنما أفكر في أمي ..
- لا تحمل همها .. معى المال يكفينا باقى العمر .. فكر في نفسك.
- تشبثت به حوشية بقوة. تأبى مفارقته. نبههما الدمرداش بحسم:
- الوقت يسرقنا يا حوشية .. ولدك رجل وسيد الرجال.
- (عديلة (*)) ..
- الله السلامة .. أمش لأهلنا في حلفا ودنقلة ..

أين دنقلا وأين حلفا أو أية مدينة آهلة. وهذا الطريق الوعر المميت هل منه نجاة؟ أول من سلك هذا القفر لابد أنه كان مطارداً بحكم أقسى، الأعدام. (أية اللىرماك على المر؟). نعم .. الاختيار الحنضل. عظام جمال هلكت تعباً أو هوت من حالق وهيكل عظمى بشرى مبعثر، عليه علق الدليل بكلمة واحدة: (الدياب). وجاه الرسول الجن .. هل يعرف سره فيبيعه للهجانه ؟. لكن البشارى لا يخون. آه لو ملك جيشاً من هؤلاء .. الفروسية والأخلاص. قرب بئر مراقة، التقوا بقافلة من العبابدة يصحبون أمرأة تحتضر، لدغتها (الطريشة)

(*) هديلة : مع السلامة.

وعجزوا مداواتها بالأعشاب والفصد ودعوات الشيخ الشاذلى وهم الآن في طريقهم للريف، (دروا أو أسوان). أين يعيش هؤلاء الناس؟ ماذا يأكلون ويشربون؟ وأية عزلة مميته اختاروها لأنفسهم؟ أهو نسك الأنبياء أم تخفى الأشرار. أهو الخوف المرضى من وباء المدينة أم التمسك بالبيئة والهوية الخاصة ؟. أهل النوبة والعبابدة والبشارية وعرب البادية وسكان واحة سيوه والغجر العزلة. ماذا لو قعد بينهم يعلمهم ويرتقى بهم. اليست هذه رسالة نبيلة لو كان النبل هو هدفه ؟. لكن النبوة مطلب عسير وقد دفع من عمره عشر سنوات لهدف تصوره نبيلاً. أما البقاء في هذه الفيافى عرضة للدغة طريشة مدفونه في الرمال، والطعام المكون من لبن النياق والحمامات الموسمية والتضحية بكل منجزات الحضارة، فهو أمر فوق طاقة الأنبياء. لو تشجع وفعلها، فأول ما ينبغي القيام به هو أن يجمع أفراد أول قبيلة ويقول لهم صراحة: أيها الأخوة، جئت أعلمكم .. والشيخ الشاذلى الذى تسيرون الأيام الطويلة لزيارة مقامه والتبرك به هو مجرد خرافة. فماذا يتوقع سوى لغة السيف عقاباً. الشاذلى والمرسى أبو العباس والبدوى والسيدة والسيد. وفى كل قرية ومدينة كذبة كبيرة يسمونها الولى. وقد نعتوا مصر بالمحروسة لأن بها مقامات آل البيت، مع أن مصر كانت دائماً عرضة للغزاة والهزائم. الشيوخ والخرافات وهموم عوض شلالى. رفاقه الآن ينعمون بالمناصب الصحفية والذين كانوا معه في معلمين قورته صاروا نظاراً لمدارس النوبة. وهو شريد ومطارد. يوم عينوه مدرساً في مدرسة قرشة خلفاً

لمدرس شمالى، فرحت القرية وأقامت أمه عرساً ولقبوها بأم الأستاذ وصار لها وزن ومكانة خاصة. وحين طلبوه ليؤم المصلين يوم الجمعة، خيب أملهم بعد أن هاجم في خطبته قيمهم ومعتقداتهم ومقام الشيخ عبد الرحيم ووصفه ببقايا الوثنية. ذعروا وتجنبوا استشارته في أمورهم الدينية وأمه بخرت الدار وقالت يا شيخ عبد الرحيم سامحه من أجلى ونذرت له خروفاً. وهذا الدليل البشارى المغرور، ضاع منه العقل السديد ففقد حذره الفطرى وأوقعهم في مطب قاتل، عبر بهم وادى العلاقى نهاراً فحوصروا بداورية حدود يقودها صول جنوبى عجوز محنك يعاونه دليل بشارى أكثر حنكة. كانوا يطاردون بعض الهاربين واتسعت بينهم المسافة، ارتدوا خوفاً من التيه ونفاذ الزاد. فما الذى سيحدث الآن ؟. تعانق الدليلان. رطناً. تبادلا أخبار الأهل. جلسا يتهامسان، والعساكر أناخوا الجمال وانتشروا يجمعون الحطب لصنع الشاي وعيش (الدوكة [*]) فوق صاجة أعدوها. والصول رغم تواضع رتبته صار حاكم هذه البقعة من العالم. وهو ليس طاووساً مثل ضباط الشمال، بسيط، متواضع .. يداعب الأقفيه والوجوه برفق، لا يصفع بقوة ولا يربت بحنان. يوجه النصائح ويتساءل بأبوة: (ليه يا أولادي سايبين البلاد وهاجين) ؟. يطلع على البطاقات ويستفسر عن البلاد والأصول. عوض شلالى أحس بهلع وشحذ كل طاقته للردود المقنعة لأنه أكبر الفارين سناً ووجوده بين هؤلاء الشبان ملفت ومثير للتساؤلات، بالفعل اخناره الصول، أخذه بعيداً، جلس متربعاً وأمره

---

[*] عيش الدوكة : خبز من الدقيق يصنع فوق صاجه.

بالجلوس، وضع المدغة في فمه الخالية من الأسنان وحدق فيه متفرساً. فكر عوض، أنه ربما يقوم بدور الوسيط في مسألة حق الدخان، استعد للمناورة والمساومة تساءل الصول وهو يلوك المدغة ويرسم خطوطاً على الرمال بسبابته:

- الأخ من أين ؟
- نوبى ..

ضحك الصول وقال باصقاً المدغة

- ومن قال عنك إنجليزى .. أقصد من أى البلاد ؟
- كنزى
- عارف والله، يا أبني اسألك عن قريتك .. لا جنسك.
- قرشة.
- ابن من ؟
- وهل تعرف كل سكان قريتى ؟
- أنا من عرب بلدكم .. وكنا نسكن في آخر القرية في النوبة القديمة والآن تداخلت بيوتنا بعد التهجير.
- يا أهلاً ..
- وربما نطلع أقارب.
- ابن شلالى من نجع العلياب
- أنت عوض الذى ..

مسح الصول آثار المدغة من شفتيه وأضاف بهدوء

- لدينا أشارة عنك في رئاسة المنطقة القبلية.

وهل أبلغوا أيضاً المطارات والموانئ والأنتربول والحكومات الصديقة؟ علام هذا كله؟ إلا يكفى أنه ترك لهم الساحة. وهذا الصول يستحيل أن يرجو منه خيراً، فهو من نجع العرب المعزولين عن نجع قرشة وهم بقايا قبائل ربيعة الغازية لشمال النوبة، وهو صغير كان يتقاذف بالطوب مع أولادهم ويسمونه (عرب جرب) صحيح أن بينهم حسن جوار لكن الحاجز النفسي القديم موجود، لقد احتفظوا بلغتهم العربية وابتعدوا وتقوقعوا، ويشعرون بالسيادة. وهذا الدليل .. أهو متآمر ؟ فمازال يتهامس مع دليل الحكومة فلو أطلق ساقيه للريح، سيكون ظهره مكشوفاً لطلقات بنادق ((اللى انفيلد)) العتيقة. فهل يغامر ويتقدم بحق الدخان دون أن يطلبوه. وقد أنقذه الدمرداش مرة. وحسن تصرف الدليل مرة أخرى .. فمن له بالثالثة؟ هل يرفع يديه للسماء مستنجداً هل يجثو تحت قدمي الصول طالباً منه التجاوز عن أداء وظيفته لمجرد أنه تبسط معه؟ هل يرشوه؟ الويل له من قضاة الشمال، سيجعلونه عبرة لكل العصاة والمتمردين. والرفاق القدامي لن يقفوا معه، وأهل النوبة سيشجبون موقفه. وعليه بالفرار أو الموت هنا. قال الصول وهو يقوم منفضاً ملابسه :

- جدك كان من مشايخ النوبة .. أما أنت وأبوك .. ربنا يهديك يا ولدى وعلى العموم، قل لناس العلياب أننى قابلت سر الختم في الصحراء ..

ثم قفز بخفة فوق جمله البارك وقال في غموض : ((تجيبك

من غيرى)) وظل عوض شلالى مذهولاً، فهذا رجل تخلى عن واجبه وتنازل بلا مقابل عن ترقية سهلة. ولم يجد تفسيراً سوى أنه محظوظ وهو الذى يبحث عن الأسباب دائماً.

افترقت القافلتان وأخذ الدليل يغني بالسودانية هذه المرة: (ضيعوه .. ودروه .. أنت ما بتعرف صليحك من عدوك .. الله يأخذ ليك حقوقك ويجازى اللى ظلموك)) الظلم والضياع والحقيقة الغائبة. لماذا تركهم الصول؟ هل رشاه الدليل.. ؟. أم لأنهم في مهمة خاصة؟ اقترب عوض شلالى من الدليل .. ونكشة:

- أصحابك ؟
- كل الصحراء تعرفني حتى الجن الأحمر ..
- كيف تخلصت منهم ؟
- أنا جاه الرسول ما يغلبني زول ..
- حتى داورية المخابرات ؟
- الشيطان الرجيم ذاته أخلصكم منه ..

ثم أضاف ملوحاً بسيفه:

- أنا نبي الصحراء وفارس البشارية.

استغفر الشبان وصلوا صلاة الخائفين. وهذا الدليل الفطرى الخشن، ليس وثنياً ولا مؤمناً ولا معتوهاً ولا مغروراً أنه يعبر عن ثقته بنفسه وبالطريقة التى يجيدها.

لكن الشبان اصابهم الهلع، رفع أحدهم يديه لأعلى وقال

متوسلاً :

- أنه غشيم يا رب .. سامحه من أجلنا ..

وقال آخر بغضب :

- كيف سلمنا أمرنا لهذا المجنون؟

لو غضب الأله على الدليل .. هل يأخذ الآخرين بذنبه؟ ولو مات الدليل فجأة فهل يموتون بعده في هذه الفلاة؟ الدليل والربان والملاح والقائد ألا يتطلب منطق الأمور بديلاً ؟. والملاذ من الشمس فجوات أو كهوف. والذين عاشوا هنا أو مروا من هنا لن يلجوا نار الجحيم.

قال شاب متهوس فرغ لتوه من الصلاة:

- قم يا جاه الرسول .. صلى ركعتين وأستغفر ..

وقال أيضاً لعوض الذى كان يفكر بصوت مسموع :

- وأنت يا عوض شلالى .. ما المانع؟

لو كانت الصلاة هى المنقذ من ظلم العالم لصلى، لكن الذين مثلوا بأهل النوبة وتاجروا فيهم .. كانوا يصلون والذين قتلوا الخلفاء والأمراء كانوا يصلون كذلك. والدليل لا يبالى بالخائفين والشمس الحارقة، إنما ينظر للأفق البعيد. محاولاً تحديد المسافة الباقية حتى وادى (جريب وبئر عرفتا)، اسماء وأماكن لم يأت ذكرها في الخرائط. وأحياناً ينكفئ على الأرض فارزا (الجرر) لكى يحدد بدقة، أيها للهجانة أو سكان المنطقة، تلك خبرته، كم مرة يقطع هذا الجحيم

ذهاباً وأياباً؟ السياف والحواة ومروضى الوحوش والغواصون والقوادون والجنود المرتزقة .. أما من وسيلة أخرى لكسب العيش ؟. وعوض شلالى مازال تفكيره منصرفاً لتحليل مغزى تصرف الصول سر الختم سليل قبيلة ربيعة الغازية! هل هو مثل الدمرداش وربيع السلواوى وشندى .. ينتمون جميعاً لحزب سرى يجهله، هدفهم جميعاً أحياء الفروسية والشهامة. أم أن للدليل علاقات خاصة مبهمة مع رجال الحدود. لكن الدليل هو الذى يسأل عن مغزى الحديث الذى دار بينه وبين الصول، تشاغل عنه ولم يرد عاود السؤال بضيق: (الحكاية شنو؟) ..

- ابداً.
- تعرفه ؟
- ابداً.

نفس حيرته، قال الدليل في النهاية بضيق وقلق: (أنت يا زول منو [*] ؟). لو كان يعرف هو منو .. لقال له. فبعد انفصاله عن ماضيه .. هل يستطيع أن يعرف من يكون. عند بئر عرفتا وجدوا نوبياً هارباً ميتاً، غسلوه ودفنوه وقال الدليل أنه شرب بعد عطش شديد. ساروا بعد ملء الزمازم والقرب بماء عطن. ثم توقفوا ريثما يستطلع الدليل أمر غبار كثيف بدا في الأفق وقد ظنوه سيارة مخابرات الحدود، ثم اتضح أنها رمال هاجت ثم سكنت. والدليل وقد أطمأن على سير الأمور عاد يغنى بلغة البشارية وقلده النوبيون

---

[*] منو : من.

بلغتهم. ما أصل هذه اللغات وما علاقتها باللغة المصرية القديمة؟
وارتفع صوت شاب نوبى يشدو بموال عبده شندى الأخير ..

((النوبة يا بلدى

((يا أرض أجدادى

((يا نخلاتى

((يا سر أحزانى

((يا بلدى .. وداعاً))

نعم وداعاً للنوبة. وقد ترك عوض شلالى خلفه تسعاً وثلاثين قرية. لقد هزم. وهذا خروج المهزوم. وقد تنبه للصوت المغنى يتحول عويلاً ..

((يا بلـــدى)) ..

أراد تقليده، فتح فمه، يا بلـــ .. ، احتبس صوته. اختنق. أنهار جالساً. وضع يديه فوق رأسه كالنساء المفجوعات. سأله الدليل مستغرباً:

- مالك يا زول ؟

رد كاذباً :

- وجع الضرس ..

- (الرجال ما يبكوا يا زول) ..

نعم. لا يبكون إنما يتشردون، يسجنون، يبعدون. ثم ينعم الوشاة والدون بالمناصب والمجد وراحة البال. ساروا تعبوا. ناموا. قاموا. واصلوا وأكثرهم جلداً ورغبة في الوصول هو عوض شلالى. بعد ثلاثة عشر يوماً من العناء قال الدليل فرحاً: ابشروا يا شباب .. لقد وصلنا. نظروا للأمام حالمين فلم يجدوا مساكن أو علامات أو أي أثر للحياة. إنما هو مجرد فاصل حدودي وهمي يعرفه الإدلاء. فما يزال أمامهم مسيرة يوم كامل بليلة ونهاره حتى يدخلوا (أبو حمد).

الفصل الثاني
محاكمة عوض شلالى

-١-

قبل موعد القطار الآتي من الشمال بساعة يزدحم رصيف محطة كلابشة بالمستقبلين والمجاملين والحالمين. وقد يكون القادم مغترباً واحداً تستقبله قرية كاملة بنسائها ورجالها. وربما لا يأتى أحد مجرد تخمينات وأحلام تتبدد فوق رصيف المحطة مع تحرك القطار جنوباً. فحياة هؤلاء الناس، هى حالة انتظار مستمرة للغائبين الذين تبعثروا في أرجاء الدنيا سعياً وراء لقمة شحت هنا، استحالت. هجروهم بسرعة وقذفوا بهم تحت جبل السلسلة، الكهول والأرامل .. منحوهم معونة الشئون والقادرون تركهم للبطالة والتسكع فقاموا بهجرة ضرورية تاركين خلفهم الأمهات والزوجات لحراسة بيوت من الحجارة وما يسمى بالوطن الجديد.

وحوشية النور، تقف بصعوبة متساندة بالحائط والعكاز.

منصته لخطوات المهرولين للمحطة، ملقية بسؤالها اليومي لعموم السائرين: (منو اللى جاي يا خلق الله) ؟.

- الله أعلم ..
- يقولون حسن مدني ؟

- يمـــكن ..
- بالله خبرونى ..

عقبال ولدك يا حوشية ..

- يا رب ..

يا رب، تتنهد، يا رب، ترفع يديها للسماء، يا رب .. الصبر. قلق. أمل. حلم. وصبرها يفوق طاقة الأنبياء تسع سنوات تحلم بالمستحيل، الذى لا يجئ ولا تعرف له مكاناً. تنقب عنه في ذاكرة العائدين وعيونهم. العراف بشرها وهى تصدقه. تسمع زغاريد النساء، فتحزن. تبكي. تذهب لكل عائد أينما يكون، القرى المتاخمة والبعيدة، كل المغتربين يعرفون حكاية ولدها المختفي، يشفقون عليها، يتحسبون لأسئلتها فليس لديهم الإجابة الشافية. تسأل وهم يراوغون ..

- دورت على ولدى يا حسن مدني؟
- في كل سفرية والله العظيم يا خالة ..
- والخبر ..؟

يسكت. تدرك. تحزن. تبكي. وتتجه لمغترب آخر قبل أن يستريح من متاعب السفر ..

- وأنت يا صابر عبد الرحيم .. أين كنت؟
- الكويت ..
- فرحني ..
- الله يرجعه بالسلامة ..

- وأنت يا عبد الغفور ؟
- سألت عنه في كل بلاد الحجاز والله يا خاله ..
- وماذا قالوا ؟
- يا ليت .. كنت أخذت البشارة ..

وآخر سافرت إليه إلى (توشكي [*]

- لك مدة يا ولد محروس في الغربة ..
- زرت كل البلاد ..
- سمعت عن عوض شلالى .. ؟
- ولدك بصراحة لم ينزل بلاد العرب.
- وأين يكون ؟
- سمعت من الناس ..
- سمع الخير أن شاالله ..
- أنه يعني ؟
- هـــه ..
- في بلاد بره ..

وأين يا ترى بلاد بره هذه؟ أليست من ديار المسلمين؟ أهى في بلاد يأجوج ومأجوج. وصارت تسأل،تتقصى، تتابع أخبار العائدين حتى سمعت يوماً بمن كان في تلك البلاد، الأمل الأخير. سعت إليه بكل لهفة أم صبرت سنوات، لكنها اغتمت بالكلام الملغز الذى قاله العائد: بلاد بره يا ست حوشية ليست مثل بلادنا القديمة يرتبط أهلها بصلة قربي ولغة ودين وتجوبينها فوق ظهر مركب

---

[*] توشكي : قرية نوبية .

شراعي في أيام ويعرف فيها الناس بعضهم ويتزاورون، أنها يا ست حوشية بلاد واسعة جداً تحتل القارات الثلاث ويسافرون إليها بالسفن الكبيرة والطائرات والقطارات وتفصل بين بعضها المحيطات ويتكلمون عدة لغات، وسكان الشارع، بل المنزل الواحد لا يعرفون بعضهم وندر تبادلهم السلام، ففى أى تلك البلاد ولدك؟.

- والله يا زول ما فهمت كلمة من كلامك ..
- يا ست حوشية ..
- صارحني يا ولدي .. أنت كنت هناك ؟
- نعم .. في روما ..
- والخرابة هذه .. أليست في بلاد القطران؟
- بلد من ألف ..
- يعني تابع بلاد الزفت ..؟
- نعم .. لكن ..
- ولدى مات .. مات يا ناس .. مات ((بيو .. بيو)).
- وحدى الله ..

تقذف بالتراب فوق رأسها. تندب. تسب الحكومة. تسب الدنيا. يعيدونها للدار منهكة. مولولة. تقف النساء على الأبواب، مستطلعات ، متأهبات ، يمسكن بالملاءات السوداء يستفسرن قبل الندب الجماعي والزحف لبيت المصاب ..

- ستار يا رب .. من ؟

- حوشية النور ..

- ماتت ؟

- يا ليت كنا نرتاح منها ومن شؤمها.

أحزان بلاد النوبة وأفراحها، شرارتها صرخة أو زغرودة. أربعون يوماً لتقبل العزاء وارتداء السواد، وأفراح لا تنتهي قبل ليلة الدخلة. وطقوس خاصة لكل مناسبة، الختان والولادة والمرض. والنساء في قرى الكنوز، لا يغادرن سجون البيوت إلا معزيات أو مهنئات، فيحولن لدغة العقرب لجنازة، وعودة الغائب لعرس حقيقى. وصرخة حوشية النور جمعتهن للمواساة، جلسن حولها معبرات، متضامنات. جئن بأباريق الشاي وقعدن يبكين ويثرثرن، لكل واحدة منهن حكاية مع الزمان الغادر، عقوق الأبناء، هجر الأزواج، قلة الموارد، قروش الشئون الزهيدة التى لا تفى حاجة رضيع، السحب على المكشوف من دكان الحاج أحمد عباس ودفتره الحافل بمن لا يسددون، ولحوشية النور، حكاية طويلة مثلهن مع الزمان.

- ٢ -

في علم الغيب كانت يوم بنى الشماليون خزانهم الأول عند آخر مدنهم جنوباً وليس قبلها، وكانت طفلة أثناء التعلية الثانية للخزان، لكنها عاشت تفاصيل الكارثة، النهر الذى ارتد إليهم مبتلعاً البيوت وشريط الأرض الصغير المتبقى في المرة الأولى كان قد

اكتسح الجزء الأكبر من الأرض الزراعية، هذه المرة احتضن الجبل وجثم كالكابوس فوق صدر الجنوب وأنزل عقابه بهم وهم الذين أحبوه وغنوا له والهوه قديماً ولم يوجه ضربته للشماليين الذين منعوا سريانه وضحكوا عليه بالعرائس. وفتح أهل النوبة عيونهم يوماً والنهر أمامهم في جوفه القرى، والجبل خلفهم. فجلسوا يعدون فلوس التعويض ويتحسرون. اليائسون هاجروا شمالاً. الأقوياء والأصلاء صمموا على البقاء. قالوا: لن نبارح بلادنا أبداً .. سنبني بيوتاً جديدة فوق الجبال وننتظر. ومر بالمقيمين شتاء طويل حتى فتح الشماليون عيون خزان اسوان لسحب الماء المخزون ليندفع النهر لمجراه التاريخى فرحاً. وبانت الأرض المغمورة. عمت الفرحة البلاد. نحروا الذبائح. اضيئت المساجد. زاروا الأضرحة شاكرين. صلوا كثيراً.حمدوا رب النهر. تمت الأعراس المؤجلة. زرعوا. ارتفعت أعواد الذرة العويجى. فاحت رائحة الشمام والبطيخ. باتوا يوماً والحصاد وشيك وأصبحوا والنهر يدمدم متجهاً للجبل. يا مغيث. صوتوا. اعتصموا بالمساجد. دعوا بالخراب على الخزان وأهل الشمال. سافر وفد من المتكلمين بالعربية إلى أسوان لمعرفة سر عيون الخزان التى تفتح وتغلق بغير انذار. ثم عادوا مكسورى الخاطر .. يائسين. لأنهم بحصولهم على التعويضات، صارت الأرض ملكاً للدولة، فأن زرعوها صيفاً، فهم يرتكبون مخالفة وليس لهم الحق في ذلك. معظم الرجال نزحوا بحثاً عن الرزق. وكانوا يبعثون لذويهم بالحوالات البريدية والطرود.

والمتعصبون للمنبت والجذور استمروا في عنادهم يقاومون الجدب ومزاح الفيضان والاعيب الذين يديرون أمر الخزان. وكان أبوها من الصامدين، يصطاد السمك شتاءً. ويبكر لنزول الأرض بمجرد انحسار الماء عنها. يخوض في الوحل والطين مبتكراً الوسائل ليكون رائد المزارعين. محاولة محفوفة بالمخاطر، لأن الأرض الرخوة .. مقبرة مفتوحة. ولكن المحصلة مربحة، الحصاد المبكر. سواء أغلقوا عيون الخزان في الموعد، أو عجلوا لتخزين مياه الفيضان. العقلاء نصحوه بالتروى. وفى التأنى السلامة. لكنه سخر منهم وظل يزرع ويحصد ويبيع وعاش مرفوع الرأس. حتى كان يوم تذكره حوشية ولا يغيب عن بالها أبداً. بعد صلاة الفجر نزل للقاء أرض بالكاد برزت فيها من قاع النهر، ثانى يوم ترى فيه الشمس. صلبة في أماكن قليلة، ورخوة في معظم الأماكن وبرك الماء جعلتها جزراً تفصلها عن الشاطىء ترعة موحلة . بالشبر يعرف حدود ملكيته، هناك تل صغير، هنا الساقية القديمة تعود السير على مهل متحسساً الأرض بعصا طويلة يغرزها مختبراً الصلابة. سنوات فعل هذا، يلقى بالبذور من بعد في الأماكن الخادعة المشكوك في قوتها. أبداً لم يفشل أو يغوص. حتى تعود وركبه الغرور فنسى الحذر والعصا. ليقع الذى لم يقع من البداية، أنزلقت قدمه اليسرى في حفرة، حاول تخليصها فلحقتها اليمني، يهوى لأسفل وكأن قوة شيطانية تريد له الهلاك، في لحظات أختفى نصفه الأسفل كله لمستوى الصدر، صرخ، مستنجداً:

يا واحد .. يا أهل المروءة .. يا واحد. وجنية النهر تشده لتحت فيغوص، الكتفان، رفع يديه لأعلى. وحوشية أول من سمعته، جرت وأمها وأخوها. والبلد كلها خرجت، وقفوا عند الشاطئ، رأوا يدين مشرعتين، ثم لا شيء. بكت حوشية، كرهت خزان الشمال وأهل الشمال. وعندما تفتحت، زوجوها لجنوبى أتى من الشمال وعاد إليه بعد شهرين هما عمر زواجها الذى أثمر وحيدها. كل الرجال كانوا يعودون عدا زوجها، طوته جنية شمالية تحت رموشها وضحكت عليه وأسدلت عليه جدائلها الطويلة، يوم علمت، تقبلت فيه العزاء ليكون أول من أقيم له مأتم من الأحياء وأضافت لقائمة من تكرههم .. نساء الشمال، سنوات مرت بها قاست فيها لتعليم ولدها حتى صار مدرساً. وكم عذبها هذا الحبيب الغائب، منذ طفولته وهو يتيه حباً بالشمال. كل صيف يجرى إلى هناك رغماً عنها. ثم يعود كل مرة بكلام لا تفهمة وكتب لا تدرى ما بهما. وقال لها الحاج أحمد عباس بأن مخ ولدها قد فسد بسبب زياراته للمشال وكف عن الصلاة وعليها بسرعة تزويجة قبل ضياع الفرصة، نصحته فطاوعها وأختار عروساً، ولما سافر لشراء ((الشيلة)). لم يعد. أبرقت لأخيها ولزوجها وكل أقاربها بلا جدوى. وكتبت الشكاوى والعرائض وذهبت لمحافظ أسوان وزارت المشايخ وصلت. قالوا لها أن ولدك مشي في السكة الخطرة وأشتغل بالسياسة .. ولم تفهم. مرت بها السنوات وهى تنتظر باكية.

وزادت حاجة الشماليين للماء فبنوا سداً هائلاً جنوبي الخزان

الأول، جبل هائل لن يسمح بمرور الماء إلا بحساب مما سيترتب عليه غرق النوبة كلها بمعابدها وجبالها وقراها. وبدأت أكبر عملية تهجير. وحوشية النور تمانع في الرحيل: (دقوني .. جروني .. ما يمشي).

- الناس كلها ماشية يا حوشية.
- أموت في بلدي أحسن.

يا حوشية

- أبداً لن أمشي لبلاد الحية.

وكانت آخر المغادرين، حملوها عنوة ووضعوها بين النسوة يمسكن بها، يهدئنها. ولم تكف عن ثورتها إلا عندما أقنعوها أن بين بلاد التهجير وبلاد ضرتها مسافة كبيرة. فاستسلمت، وأخذت داراً وابتسمت لها الدنيا حين افرجت الحكومة عن ولدها بعد عشر سنوات فاستبشرت خيراً ببلاد التهجير. لكن هذا الولد المجنون ليس مثل أبناء العباد الذين يريحون الأمهات. لا تدرى ما أصاب رأسه، فمازال يقول الكلام الغامض ومازالت الحكومة تسعي وراءه. وهى على يقين بأن روحية الحلبية العاقر عملت له شيئاً من الأعيب الجان أصاب رأسه في الصميم. وقال لها العمدة أبن قبيلتها مشفقاً: (يا حوشية .. ولدك لسه مخه مارق). وهى تخاف عليه مما حدث لبحر جزولى لأن الحكومة لا ترحم. شهر واحد، ثلاثون يوماً عدتهما يوماً بيوم منذ أطلقوه حين جاءت الحكومة كلها تسعي في طلبه. ليلة سوداء لن تنسها أبداً. والولد الضابط الأبيض، زغدها وشتمها، وأخذوها

للمركز، أول مرة في حياتها تجرب فيها قلة أدب العساكر، الأوساخ. الولد الضابط أبن الغسالة أمسك بعصا وقال لها: (هتقولى على مكانه ولا أحط لك العصاية في ...) يا عيب الزمان، هل هذا كلام يقوله مسلم لمسلمة: بصقت عليه وسبته. وفى أعماقها فرحت أن يدوخ أبنها كل هؤلاء .. أليسو أهل روحية الحية. الظلمة. ظلموها ظلماً فادحاً فتركت أمرهم للذى لا ينام ولا يغفل. ورغم كل ضغوطهم، تحملت حتى خرج ولدها في أمان الله وركب طريق السودان. كان ذلك منذ تسع سنوات مضت. وقال لها الذين سافروا معه أنه وصل بالسلامة. فأين وصل؟ وهل كذبوا عليها؟ المؤكد أنهم يخفون أمراً. وربما قطع البشارية رأسه. ربما أمسكوا به وأعادوه للسجن وربما مات تعباً واستقر في بطون الضوارى. (ولدى مات يا ناس .. بيو .. بيو .. يا بادللى [*] يا عوض غالى).

- وحدى الله يا حوشية.
- الصبر يا حوشية.

بكتهم على مر السنين، الأب والأبن والأخ حتى فقدت نعمة البصر. وقد مرض أخوها منذ ثلاث سنوات مرضاً لا شفاء منه مسح كل مدخراته وتركها بلا معين ولا ونيس. أبداً لم تعرف السعادة والفرح سوى مرة واحدة في البلاد القديمة يوم تلقت نبأ موت زوجها، زغردت ورقصت وأشاعت أن الشمالية عشقت آخر ودست له السم،

---

[*] يا بادللى: يا خسارة.

الظالم .. لا طلقها ولا أنفق عليها ولا زارها. والسنوات تمر وهى لا تيأس. لديها صبر الجمال وصلابة الجبال. تسعة عشر عاماً في حالة انتظار. تطارد موزع البريد وعامل التلغراف.

- تلغراف يا أفندى ؟
- الله يبعث.
- جواب يا زول ؟
- جواب .. ؟

وضحك طواف البريد وقال لنفسه: ومن أين تأتيها الرسائل هذه المقطوعة. لكن بعد تسع سنوات وشهر، وقعت المعجزة وانشقت الأرض عن الغائب.

- ٣ -

ليلاً كان الوقت حين عاد بعد نهار مجدب مرت فيه القطارات دون أن تجود على قرى الانتظار بمغترب واحد في موسم يكثر فيه العائدون. وعلل المتشائمون الأمر بأن نحس حوشية قد أصابهم (وعينها يفلق الحجر) فهي بنحسها وعويلها قطعت دابر أبنها وأبناء الآخرين. وانسحب الناس لبيوتهم مبكرين حين يفتقدون مبررات السهر .. غناء أو عويلاً. فمن أين جاء يا ترى؟ زعمت الشائعات أنه عاد بطريق درب الأربعين مثلما خرج هارباً. وقالوا أن جنية النهر التي خطفت جده، خطفته أيضاً ثم زهدته ولفظته رحمة بأمه المسكينة، وأدعت شيخة مبروكة بأن الملائكة أشفقت على حوشية الطيبة وبعثت لها شبيهاً بالغائب. والحقيقة أنه لم يأت بالقطار كالعادة،

إنما هبط في مطار أسوان وركب سيارة أجرة أقلته للقرية في وقت متأخر. وعلى بوق السيارة العالي، خرج عباس توفيق من مكمنه مسرعاً، وهو يصلح هندامه وقد ظنه ضابط النقطة أو المأمور، هتف عوض شلالى مسروراً : عباس توفيق مندوب الحكومة ..؟

- عوض الجن !

تعانق بقوة. لقاء الحكومة وزعيم المنشقين بعد طول غياب. أطلق السائق أبواقاً متلاحقة وحياه عباس بمقذوف من بندقيته الأميرية. حولت ليل قرشة الموحش الكئيب لعرس قل أن يتكرر، عرس كالذى أقاموه في النوبة القديمة يوم بانت الأرض الغارقة بعد شتاء طويل. والليلة، هذا العائد من عالم الغيب، مثل تلك الأرض، هل هو سراب، خداع بصر. حوشية النور التبس عليها الأمر، وظنت نفسها تحلم، سمعت النداءات والطبول واسم ابنها واعتقدت الشياطين يداعبونها كالعادة. جلست فوق (العنجريب(*) تفرك عينيها مبسملة وهى لا تصدق شيئاً مما تسمع. ولما أبطأت في فتح الباب، اندفع عجولاً بجسده وخلعه وكانوا جميعاً بالداخل، يحيطون بها مهنئين ويلحون في طلب البشارة. لكنها أبت تصديقهم الا والغائب بين احضانها، تتحسسه ويكلمها. زغردت حتى بح صوتها. (وقرشة) خاصمت النوم والشبان حول عوض شلالى يحاصرونه ليقص عليهم حكايته وحجم الثروة التى جمعها وسبب انقطاعه الطويل، سألوه، أتعبوه، ظل يراوغهم ويمازحهم:

(*) العنجريب : السرير وهو مصنوع من جريد النخل.

- ماذا تعمل يا عوض شلالى؟
- في البحر ..
- مراكبى؟
- وللأ سمك!.
- يمكن تمساح؟!

مراكب الجنوب وسيلة الانتقال الرئيسية بين ضفتي النهر في النوبة الغارقة. القلاع المفرودة في وجه الريح. المجاديف. أنه فعلاً يعمل على ظهر مركب في حجم المساحة الممتدة بين قرشية والعلاقى. مدينة عائمة بها كل مسرات الحياة . عاش حياة كالحلم ومازال. أكل لذيذ الطعام. احتسي أفخر الخمور. رافق أرشق النساء. زار أجمل الموانئ والجزر. بهرهم مثلما انبهر. لكنه وبذكاء شديد أخفى الجزء المأساوى من رحلته، ذهابه إلى دنقلا الحلم ومحاولته الفاشلة في إنشاء جبهة النوبة الموحدة وكاد يسجن لأن أهل دنقلا وحلفا يجهلون التاريخ القديم مثل أهل النوبة المصرية وقد ظنوه عميلاً لمخابرات الشمال وجاء لضرب وحدة السودان. التقاؤه بالرفاق السودانيين واختلافه معهم لأنهم طالبوه بالعودة للشمال والنضال من جديد دون أن يدركو قسوة عشر سنوات سجناً واعتقالاً. ثم كفره بالشمال والجنوب والنوبة ودنقلة والرفاق وانطلاقه بعيداً عن وهج الشمس والقارة السوداء كلها عابراً البحار مبتعداً عن المتكلمين والسيف والسياف ومصادرة الفكر، باحثاً لنفسه عن موطئ قدم. أربع

سنوات تشرد بين أوروبا الشرقية والغربية، ذهب أولاً لبعض بلاد الرفاق، المجر وبولندا فوجدهما كالقاهرة يخيم عليهما ظل العسكر والناس يتحدثون همساً. وفى الغرب ضاع شهوراً، النوم في حدائق لندن وأنفاق مترو باريس، بيع الصحف وجنى العنب. العمل في البارات. برلين واستوكهلم تحايله على مطاردات شرطة روما حتى ضاقوا به فرافقوه للمطار مطروداً. سنوات قاتمة جمع فيها بعض المال وأراد به الحصول على قانونية الإقامة عن طريق بغى إنجليزية يتزوجها صورياً. لكنها ضحكت عليه وفرت بالمال أمام الكنيسة أو مكتب التوثيق لا يدرى. لحظة مدمرة .. لا مال ولا إقامة وما كان بوسعه العودة مفلساً للوطن .. السجن. لكنه رغم التشرد والضياع، سعد بالحرية، فالناس هناك يعيشون دنيا باهرة لا تعرف قسوة التقاليد ولا حكم العسكر وميوعة القوانين، كل يؤمن بما يريد، الشيوعى والوجودى والوثني والمسيحى واليهودى حتى الشواذ والمومسات لهم صوت. فماذا يعيده لبلاد الرعب؟ ومن له علاقة بشرطى يهلك غريمة. ظل يتنقل بين العواصم والبلاد حتى ذهب لليونان وقاده الحظ لثرى يوناني يساهم في ملكية تلك الباخرة التحفة، فالرجل أساساً، جمع ثروته من الاسكندرية حيث كان يمتلك فندقاً ومصنعاً للخمور. وعمل عنده جيش من الجنوبيين الذين أخلصوا له فأحبهم ويذكرهم بالخير ..

- أنت من أسوان ؟

- نـــعم ..
- نوبي طبعاً ..
- أهل القاهرة يخطئون أحياناً فينسبونني للسودان ..
- متوكي ولا فادجا ؟

ضحك عوض شلالى واستغرب لدقة الملاحظة، فهذا اليونانى ملم بأصول النوبيين ويجيد بعض كلمات الرطانة ينطقها كأهلها. سأله عن الكثيرين، السفرجى والبواب والطباخ والسائق، تفانوا فأجزل لهم العطاء وأرسل النوابغ من أولادهم لمدارس وجامعات الخارج، ومدير الأغذية في الباخرة واحد من هؤلاء. ثم استفسر عن واحد ممن أحبهم وانقطعت أخباره عنه عشرين عاماً ..

- تعرف عم عثمان بشير ؟

قال نعم .. الله يرحمه ولم يكن يدرى أي عثمان يعني؟ لأن ربع رجال النوبة يحملون هذا الاسم. ثرثرا وضحكا وتفاهما وألحقه بالباخرة وترك له حرية اختيار العمل المناسب حين وجده يجيد ثلاث لغات غير العربية. فوجهه مدير الأغذية لصالة الطعام ودربه بسرعة فتألق ووصل في فترة وجيزة لمنصب الكابتن ..

والشبان حوله مازالو يلحون في معرفة المزيد وعمله بالتحديد، قال مفاخراً دون تفسير : أنا كابتن. رددوا خلفه بدهشة وحسد:

- كابتن؟

ظنوه القبطان أو قائد فرقة بحارة في سفينة حربية ولم يتجهوا لصالة الطعام مع أنها درجة ليست سهلة ولا قليلة الربح. وسألهم بدوره عن الذين أحبهم ونسيهم : عبده شندى؟ قالوا .. لحس الخمر مخه وهو الآن نزيل الخانكة ..

- والدمرداش .. ؟

- يا أخي دعنا من الزفت وكلمنا عن اللحم الأبيض ..

كانوا يلفون من البداية ويدورون للوصول إلى الهدف الرئيسي : النساء. عوض شلالى أطلق آهة ولزم الصمت. لأنه مازال يعيش قصة الحب الوحيدة في حياته المجدبة. امرأة عظيمة غيرته وجعلته يرى العالم بنظرة محايدة، سيمون الفرنسية أستاذة التاريخ الشرقي. أمرآة عادية الجمال، عالية الفكر، كارهة للتعصب، متسامحة، تحب الكون كله وتمقت فكرة التفوق الغربي. التقى بها في إحدى رحلات الباخرة الباذخة الترف. ملت زوجها المغرور وهجرته غير نادمة، وتجوب الدنيا مبتعدة عنه واختارت لعدة أيام مائدة تقع في دائرة إشرافه. جاذبته الحديث المتقطع مرات واكتشفته بذكاء المثقفة. قالت يوماً وهى ترنو إليه حائرة :

- مستحيل !

- ماذا تعنين ؟

- أن تكون هنا وليس في أى مكان آخر ..

- هل توضحين .. ؟

- إنني فقط مندهشة ..
- تقصدين أنني ..؟ ولكن في بلادي يزجون بإمثالى في السجون..
- هذا مؤسف ..

ابتسم .. ابتسمت .. فرحت به وهى تمد له يدها الدافئة :

- أننى أرحب بصداقتك ..

قبل نهاية الرحلة .. تعلقت به. (يا أود .. كلمني عن بلادك). تكلما كثيراً وتحاورا. وتوقفا عند شراب الجنوب. عافت نفسها الشمبانيا الفاخرة وحاولت تجريب عرقى البلح اللاذع. رشفت منه جرعة ثم كأساً وطلبت المزيد وأدمنته. طاردته وطاردها. تلحق به حيث يكون ويسافر إليها المسافات جنت به فعبدها وهو الكاره للعبودية.

سنوات وهو لا يرى في الكون الفسيح غيرها. نسي الماضى كله، الرفاق والجنوب وأمه وخاله وشندى والدمرداش وربع السلواوى والصول سر الختم، غيبوبة لم يفق منها أبداً. أعارته كتباً وسمت به. قرأ معاً موسم الهجرة إلى الشمال للطبيب صالح ولم تتعاطف مع مصطفى سعيد وقالت أنه مجرد حيوان متعصب مريض. بعد عناء طويل تخلص بمجهودها من عقدة دنقلا ورماة الحدق ورقيق النوبة وسيوف المسلمين. قالت له أن التاريخ ماض غابر واجتراره مرض وموت، فالذى كان، قد مضى وأحلامه في دولة نوبية سذاجة ولوى

لذراع التاريخ .. قال محتجاً :

- لكننا موجودون .. لنا لغة ولون مميز؟

- وفى الهند وروسيا .. قوميات ولغات لا حصر لها.

أدنته من فكرها المتسامح فصارا جسداً وروحاً واحداً. كانت تهاتفه يومياً وتنتظره في الموانئ ولم ينفذ صبرها حين طالت إجراءات الطلاق وتعقدت واتفقت معه للغرابة أن يتم زواجهما في الجنوب تحت تمثال أبى سمبل الذى ساهمت في حملة انقاذه. والزفة داخل هودج فوق ظهر جمل وحولهما الراقصون بالسيوف والسياط. عرس في النوبة لامرأة فرنسية وسط قومه الذين يعيشون تحت حد الفقر .. كيف يكون يا ترى؟ أنها لو جاءت صيفاً .. لفرت بعد ساعة. وأمه تجهل حكايته، تلح عليه منذ جاء أن يفرحها باكمال نصف دينه وتعمير الدار. وهو يراوغ، يسوف، يتهرب، يتعلل. ثم ضاق بإلحاحها وحصارها فأفضي لها بسره رغم إلمامه بكراهيتها العميقة لنساء الشمال. قال لها أن هذه من بلاد بعيدة وليس لها علاقة ببلاد روحية ضرتها، وهى مثل السائحات اللاتى رآتهن في أسوان ومعابد النوبة. صرخت حوشية، ضربت يدها على صدرها فزعة : (هيلو .. هيلو .. يا خبر الندامة .. يا غلبك يا حوشية .. وناس البلد .. وأولادك يقولوا الشهادة كيف .. يا وجعى من شلالى وولده).

- مالك يا أمي ؟

- جرسة (*) يا عوض .. خوجاية بظنبور ؟!
- بسيطة يا أمى .. نطهرها ..
- لا يمكن ..
- خلاص يا أمى .. لا زواج بالمرة ..
- (أمال داير تمشي لى في الحرام).

الحرام والحلال. قيم الجنوب. أنه أبداً لم يسأل أحداً في تلك البلاد عن ملته ولا بحث عن مكونات الأطعمة التي تناولها .. لحوم خنازير أو حيوان الكنجرو أو شربة الضفادع. أكل كل ما يأكلونه وعاش كما يعيشون. فماذا تقول أمه لو عرفت أن هذه الفرنسية لا تؤمن بالدين على إطلاقه، ولا هي سألته عن عقيدته الحالية .. أن كان مازال شيوعياً أو عاد لإسلامه أم أرتد لوثنيته الأولى، مسائل هامشية لم يتناولها أبداً. أحبته وأحبها وكفى. أن يتزوجها في كنيسة أو مسجد أو حتى دون عقد مكتوب .. مجرد تفاصيل. لقد التقيا خارج حدود القيود والمعوقات. وأمه يصعب اقناعها لأنها من هنا وتؤمن بكل ما هو هنا، الأصل والفصل والملة .. ولن تحيد عن رأيها ابداً: (من بكره الصباح أدور لك على عروسة).

- بالله يا أمى سكى على الموضوع وريحيني من وجع الراس ..

(*) الجرسة : العيب.

أبداً لم تسك على الموضوع ولا أراحته من وجع رأسه التى ينبغى كسرها لمعرفة ما بها. استعانت بكبار البلد وعقدت له مجلس تأديب وأصلاح.

- ٤ -

الرجال الباقون في القرية .. قلة، منهم المتمسكون بأرض بور وزعتها عليهم الحكومة ويحاولون أحياءها بغير رجاء. المحالون للمعاش، المرضى، الذين سحقتهم مدن الشمال واعادتهم بلا عقول. المدرسون، أثرياء السفر الذين يأتون بالمال .. يبعثرونه ثم يفلسون ويسافرون. صفوة هؤلاء هم قوام هذا المجلس المنعقد في دار حوشية النور لمحاكمة عوض شلال عرفياً. والذى يرأسهم هو العمدة الجديد محمد حسن خليل من قبيلة (المكناب). وعوض شلالى حاول تحييدهم وامتصاصهم بعلب السجائر والحلويات الفاخرة والعشاء الطيب. أكلوا. شربوا. دخنوا. ترحموا على موتاهم. ضربوا الأمثال. استعانوا بآيات القرآن .. عن الجنة التى تحت أقدامهن وبهن أحساناً. ثم عرجوا للمهمة الرئيسية، العجوز استدعتهم ولابد من انصافها. تولى العمدة المبادرة، بلباقته ولسانه الذى لا يجامل:

- أنت يا استاذ .. لماذا أغضبت ستنا الصبورة ؟
- الزواج قسمة ونصيب يا عمدة .
- وقسمتك أين أن شاء الله؟ .. من شابه أباه ..؟

- يا عمدة المسألة ميول وأذواق.

انفعل العمدة. هب واقفاً. أفلت منه الزمام. يهاجم بقسوة:

- فلسفة كذابة ولعب بالكلام .. كن صريحاً وقل بناتنا لسن على مزاجك. من تتصور نفسك. أحسن من من؟ كل مؤهلاتك دبلوم المعلمين ولغات تعلمتها من الصياعة. وطول عمرك ومخك مركب شمال. كنت مدرساً محترماً ورفست النعمة وضيعت نفسك واشتغلت بالسياسة عن جهل. وفى النهاية سجنوك ثم هربت تاركاً أمك. والآن عدت بنظارة ولسان معووج قلنا الولد دخل مجلس العموم البريطانى وأنت تجمع أطباق الزبائن ورجعت من جديد لوظائف العار.. مالهم بناتنا يا أفندى؟ هل نرميهن في بحيرة ناصر للتماسيح أم ندلل بهن في أسواق الرقيق. أسمع يا زول.

وأخذ العمدة يذكر اسماء الذين ارتقوا أو اغتنوا أو اشتهروا من هذه القرية أو تلك، الحاج عوض الله مدير كبير في شركة السكر وعقد على بنت عمه الأمية. بشير عبد الرحيم مدير بنك النيلين في الخرطوم ولم ينس القرية التى علمته وانجبته. عبده شدين الذى تعلم في فرنسا وتتخاطفه فنادق مصر قال بنت بلدى أحسن. وأبو زيد عوض الله وفلان نائب وزير وعلان نائب في البرلمان وإبراهيم عيدون الناظر. كل هؤلاء تمسكوا بالأصول لأن بناتنا أشرف بنات العالم .. تتركها بالسنوات فتحافظ على اسمك وسمعتك. ولسن مثل

غيرهن الواحد لو غاب يومين يعود فيجدها تحت رجل آخر. وانظر إلى حال أبيك وأمثاله .. تخلوا عن أصولهم .. فهلكوا. وهل تظنون نساء مصر وغيرهن يحببن سوادكم . الواحد منكم لو أفلس ..تقذف به لكلاب الشارع. لكن هنا .. تمرض .. تفلس .. تصاب بالجرب، هى بجوارك .. لأنها من لحمك ودمك. ثم أنهى العمدة حديثه بتنهيدة وسؤال :

- وأنت يا أستاذ .. ما هى حكايتك بالله عليك؟

- المسألة يا عمدة ..

يقاطعه العمدة، كأن بينهما ثأراً، يهب واقفاً من جديد، يضرب الأرض بعصاه بعصبية وعنف والدوار سكون والنساء يتجسسن تحت النوافذ يتوقعن هزيمة المارق. والرجال تركوا الساحة للعمدة لأنه أقدر على مواجهة الأفندية وأصحاب الشهادات لأنه كان موظفاً بالابتدائية قبل أحالته للمعاش.فيواصل الهجوم وكأنه يريد أهانة (العلياب) بعد أن انتزع منهم العمودية:

- مسألة ماذا يا استاذ .. هل تظنني من دراويش البلد فتأكلنى بكلمتين، قبل أن تولد أنا كنت من قيادات حزب الوفد وأفهم جيداً في السياسة. ومن انت؟ هل أقول للناس ولحوشية من تكون؟ اسمعوا يا ناس العلياب وأنت يا حوشية ولدك كان شيوعى .. والشيوعى يعني ملحد والملحد لا يعترف بالله ولا برسوله. ولما أفرجوا عنه، من شدة غيظة جاء يبشرنا بدنقلة ودولة النوبة وكلام تخاريف من هذا النوع.

ضيع العمدة السابق وضيع أمه وعدمها النظر وغرر بالدمرداش. هل تعرف يا استاذ أين الدمرداش الآن؟ آمن بأفكارك وتصور نفسه زعيماً نوبياً فأخذ يكتب الشكاوى ورفع قضية على الحكومة لنا الآن أكثر من ثلاث سنوات لا نعرف له مكاناً. هل أنت مبسوط بتلميذك المسكين. يا أستاذ طول عمرنا نأكل من خير مصر ونعيش تحت مظلتها. وتأتى جنابك آخر الزمان وتضع مسماراً بيننا وبينهم وتشعل فتنة .. وماذا يحدث لو سمعنا كلامك ودكونا بالطائرات ومسحونا من وجه الأرض. وبالله عليك أين كنت كل هذه المدة .. هل سألت نفسك مرة واحدة وأنت مثل البغل أمك كيف كانت تعيش. يا أستاذ أمك كانت على وشك الجلوس عند السكة الحديد وتقول لله يا محسنين.

لولاى ولولا أهل البلد. قررنا لها معونة الشئون وأكلناها ولبسناها وذهبنا بها للطبيب. وبناتنا .. غسلن ملابسها وخدمتها .. فهمت يا أستاذ لماذا أتحامل على (الشراميط) أمثالك. واسمع كلامى الأخير .. إذا أردت السفر مرة أخرى .. خذ معاك أمك (وكفاية قرف .. جاتكم داهية) خلفة العار.

هل خرج العمدة عن حدود اللياقة والأدب أم قال الحق؛ الرجال خفضوا عيونهم خجلاً فما تعودوا المجاهرة بأعمال الخير والثواب لأن الجنوبي يقتسم الرغيف مع جاره المحتاج. وحوشية بكت يوم قبلت معونة الشئون ولم يكن أمامها بديل بعد أن باعت كل ما يباع وأبنها لا تعرف له مكاناً. وعوض شلالى أحس بالجفاف والعطش والسخونة. فهذا العمدة المتعالى الوفدى القديم بصوته

الزاعق وجه آخر لرموز كرهها وكره البلاد بسببها. طعنه ومرغ بكرامته الأرض ووصفه بالشرمطة بكلمتين شطب تاريخه النضالى كله وحوله لمجرد كافر تعصب لقومه من الغيظ. إنما لابد من وقفة مع الذات. لقد أخطأ في حق أمه خطأ شنيعاً لا يغتفر. وعذره أن علاقته بالبلاد قد انبتت فهو لم يعرف سوى مؤخراً أن خاله مات مفلساً بعد مرض طويل وأن أمه فقدت الأبصار وأن الحكومة عفت عنه والظروف كلها تغيرت .. وبالصدفه عرف هذا كله – وهو يسكر في احدى حانات أثينا مع أحد بلدياته. لحظتها فقط اكتشف أنه عوض شلالى الجنوبى. وأن له أماً ووطناً رغم جواز السفر السودانى الذى يحمله فركب أول طائرة. غريباً عاش تلك السنوات. يتذكر الواحات وبحر جزولى ومسئول أسوان فتتسع الهوة لدرجة أنه حين سمع عن نكسة يونيو، تذكر الطواويس شامتاً. لمجرد أنها تذير سقوط دولة العسكر. حتى أخبار آخر الحروب سمعها ببلاده. لا شعر بالزهو ولا بالسعادة. كأنها أخبار أمة تتعارك في مكان مجهول. قالت سيمون فرحة وهى تتصفح الجرائد:

- لقد صنعوا شيئاً رائعاً!
- من هم ؟
- قومك.
- قومي ؟!
- لقد عبروا.
- آه ..

- كيف تزعم حبك لي وقلبك مليء بكل هذا الحقد؟
- وما علاقتك بمن عبروا أو غرقوا ؟
- الذي يحب. يغفر.
- والذى يسجن عشر سنوات ظلماً .. لا ينسي.

في تلك الليلة .. كفا عن ممارسة الحب. فصلت بينهما أنباء حرب طاحنة تدور في مكان بعيد. هى تكلمه عن التسامح والنسيان، وهو يصف لها كل يوم قضاه في الواحات. قال لها أن سجون الشرق ليست مثل سجونكم الفندقية، هناك يتحول السجين إلى حيوان، لا دورات مياه داخل العنابر ولا أسرة. أبراش وبطاطين سوداء وطعام سيىء ووجوه كريهة.والسجان فلاح جاهل لا يفرق بين السجين والدابة. قال .وقالت. وجدت منه عناداً ومقاومة. انصرفت غاضبة. تخاصما يومين. سعى معتذراً فوجدها تبكى بكاء حيرة وقالت كلاماً غريباً وهى تحتضنه بقوة تكاد تفتت عظامه:

- أنني أشعر بالفشل.
- الفــشل.
- في داخلك بقعة سوداء لم استطع محوها.

هذه المرأة المحيرة .. كيف تراه؟ أهو فأر تجارب بالنسبة لها. تركها ونزل مهموماً. هاتفها في اليوم التالى وعرفها حكاية أمه وعن رغبته في السفر الفورى. قالت كلاماً أكثر غموضاً:

- أنت الآن في طريقك للنقاهة.

- هل تأتين معي ؟
- انتظر عودتك وبلغ أمك تحياتى.

عن أية نقاهة وفشل تتحدث. المؤكد هناك سوء فهم وقع بينهما وحين يعود .. سيجد وسيلة ما للتفاهم. وأمه التى نسيها كل تلك السنوات .. هل لها علاقة بهذا اللبس اللغوى .. في طريقك للنقاهة. أكانت تراه مريضاً؟ وهل هو مريض فعلاً؟ تسعة عشر عاماً وأمه تتعذب بسببه. والدمرداش .. أهو ضحية أخرى؟ والعمدة السابق .. هل دفع ثمن خروجه؟ لو أرسل لأمه ثمن زجاجة ويسكى لعاشت مرفوعة الرأس .. كيف فكر ذات يوم في هموم أمة ونسى أمه. وقد فكر أن يكفر عن أخطائه القديمة ويترك لها رصيداً كبيراً من المال ويستأجر لها خادمة. قال لهم ذلك. ردوا عليه في غضب.

- وهل بين بناتنا من تعمل خادمة بأجر؟
- الله يسامحك يا ابن شلالى.
- عشنا وسمعنا.
- هل هذا كلام يا أفندى ؟
- لا حول الله.

تدخل الحاج أحمد عباس وأسكتهم جميعاً : (يا ناس .. الراجل ما غلط في البخارى .. مجرد ذلة لسان .. وحدوا الله ..).

وأحمد عباس، حين يتكلم .. يستمعون إليه باحترام، فهو

صاحب التسويات العاقلة ولا يتقيد بحساسية القبائل والنعرات والمعيرة .. تأزم الموقف فتركوه يتولى قيادة السفينة بدلاً من العمدة المنحاز لقبيلته. واقترح أحمد عباس، حلاً وسطاً، أن يتزوج عوض شلالى بمن يختار من بنات النوبة .. ويتركها لرعاية أمه ويسافر لو شاء، فربما يكون هذا الزواج فاتحة خير .. فيعود لصوابه ..

- كلام سليم يا حاج.
- أحسنت والله ..
- ماذا قلت يا أستاذ ؟
- دعوه يفكر على مهل.
- ما رأيك يا عمدة ؟

وقال العمدة وهو يستعد للانصراف :

- هذا أو الطوفان .. على رأى كتاب مصر.

أراد خادمة بأجر .. فعرضوها للبيع بعقد شرعي وليس أمامه غير خيارات قليلة، أن يسافر بأمه وهذا محال. أن يبقي هنا تحت رحمة الحكومة وسيف الماضي المسلط ..وهذا جنون. وليس ثمة حل سوى أن يفر كالجبناء بأول قطار. أو يصمد قليلاً لمواجهة كافة الاحتمالات وبحثاً عن حل مشرف.

* * *

- ٥ -

كلمات العمدة سهام مسمومة. وتهديده المستتر لوى للذراع ونبش لتاريخ منسي. وهو يعني ما قال .. الرضوخ أو الطوفان. لكنه قال الحق فيا للعار. أكانت أمه تتسول الطعام وهو يتناول عشاءه مع سيمون في أفخر مطاعم باريس. وكيف نسيها كل هذه المدة. غداً تهيم سيمون بغيره وتهجره مثلما هجرت زوجها باحثة عن شراب أكثر لذوعة من العرقى. لكن أمه موجودة وهى الرمز الباقي تعويضاً عن أخفاقه في تحقيق العدالة وحلم النوبة المستقلة. وليس أمامه سوى رأى الحاج أحمد عباس .. عروس تخدمها ولن تكلفه سوى الطعام والكساء والاسم .. فهؤلاء قوم تعساء يعجزون عن إيواء بناتهم .. والا فما معنى هذا الزواج العجيب .. مع إيقاف التنفيذ. صفقة بدائية أرغموه على إبرامها ..

- أمرك يا أمى ؟
- الأمر لله يا ولدى.
- طلباتك ؟
- راحتك عندى بالدنيا يا ولدى.
- راحتك أنت أهم.

ردت متنهدة : (سامحتك .. تسافر .. تقعد بالسلامة، وتعال كل سنة حول مرة وابعت لي جوابات وعرفني يديارك وهات معاك

الخواجاية وأنت جاى وما تخلنيش تحت رحمة الناس وأنت سمعت بودانك المعايرة).

قلب حوشية الذهبي، أحست بحيرته فحررته رغم قسوة ظروفها. وبعد لحظة تراجعت. فهذا الولد المجنون لو فرد جناحيه وطار، لن يعود لعشه أبداً. فلو تزوج من هنا .. ربما تراجع وقعد. ربما حن وعاد. ربما أنجب. وفى كل الأحوال، ستجد من تؤنسها وتخدمها. فعادت تقول كلاماً مناقضاً بصوت حزين مرتعش: (لا يا ولدى .. يا تاخذني معاك يا تتزوج اللى تونسني. تعبت يا ولدى، مرات أعطش وما بلاقى اللى يمد لي كوز المويه. مرات أمشى أقع أصرخ يا خلق هو وما يسمعني زول ومرات أنام مرضانه من غير أكل ولا دوا .. لولا البنت (حليمة) ربنا يجيبلها العدل. الناس يا ولدى اتغيروا في البلاد الخراب دى. اسمها شنوا .. جبل السلسلة .. سلسلة تخنق رقابهم. في بلدنا القديمة كان الجار ما يدوق الزفر قبل ما يشوف اللي جنبه. اللي يطبخ يدي اللي ما عنده الضرير يمسكوا ايده ويوصلوه لآخر الدنيا. العيان يقعدوا معاه لحد الشفا. لا بنت ولا أخت .. حلفتك بالرسول قبل ما تسافر ريحنى ..).

حوشية بكت. وعوض شلالى نزف. تعذب. تمزق. الصور تتلاحق أمامه بقسوة متناهية، عجوز عمياء وحيدة داخل حوش واسع. تكبو ويسيح دمها. وقد تموت وتتعفن قبل أن يكتشفوا أمرها. وهذه المرأة .. هى أمه، ويستحيل عليه الفرار. لو فعلها .. لكان من أجبن الناس. قال لها وكان صادقاً :

خلاص يا أمي .. لن أسافر.

- وشغلك ؟
- أنت شغلى.
- لا تحملني همك يا ولدى.
- أنت كل همي.
- تزوج وسافر ..
- كل طلباتك مجابة.
- يعني أمشي لأهلي العروس العروسة.
- ومن تكون يا أمي ؟
- حليمة جارتنا وبنت قبيلتنا.

المهم أنها تريحك ..

- زغردت حوشية النور. غنت. معها القرية غنت. هدأت ثورة العمدة، فهذا أكبر المارقين ورأس التمرد يتم ترويضه، لو أفلت منهم .. لاقتدى به الشبان وذاد طابور العانسات. وحزن عوض شلالى كان فادحاً على نفسه. والمأذون مع وكيل الضحية وزغاريد وأغان جنوبية : (شعره كنيش الولد دا يابا .. أرجون عريس بسطيبوا [*] لفوا به شوارع القرية. تذكر عبده شندى. حزن عليه. ومثل هذا العرس البدائي هو ما تحلم به سيمون زفوه بأعيرة البنادق ووقف الشبان خارج الدار، تحت نافذة

---

[*] ارجون عريس بسطيبو : عريسنا مبسوط.

العروسين .. يتصايحون ويسخرون كعادتهم ويشدون أزر العريس بالكلمات المشجعة الجارحة.

- ٦ -

غريبان محبوسان داخل غرفة حارة خانقة : حرارة فوق احتمال البشر، الحوائط والسقف والأرض تبخ ناراً. لا نافذة ولا باب. هى زنزانة تفوح في أنحائها رائحة المسك والصندل والعطور الزاعقة ((والدلكة)) السودانية. مزينة بمشغولات سعف النخيل. وطبق حمام محشي بالفريك عشاء العرسان. وفى مثل هذا الطقس المميت يستحيل الحوار وتتمني الأرواح مفارقة الأجساد. صمت. ترقب. قلق. دهشة. مجهول. انتظار. والليل يتسرب منهما وفى الصباح ينبغي اسعاد الأهل بالنبأ الهام، فض غشاء البكارة. حتى يمكن أخراس ألسنة العواجيز. وعوض شلالى خلع ملابسه واكتفى بسرواله الباريسى الأنيق كأنه على شاطئ البحر .. ولا بحر. جحيم أرض وصحراء تمتد لأغوار النفس ورأسه تغلى بللها بالماء واستمرت ساخنة تكاد تنصهر. وحليمة العروس متحصنة خلف ملابس كثيفة وطرحه .. لا تنبس. خرساء. ولن تحرك شفتيها قبل أن تأخذ حلاوة الكلام كالعادة المتبعة. قال لها ((أقلعي)) لكى تتحرر من هذه الملابس قبل أن تختنق ولم يذهب خياله لأبعد من ذلك، لكنها أنكمشت كالقنفد ظانة بأن المعركة قد بدأت .. فما الذي يرجوه مخلوق بائس يتلوى داخل فرن،

سوى بعض الهواء. فأين الهواء؟ صرخ نافخاً : هوا .. هوا. وإذا بها تهرع نحوه بمروحة محلية من مشغولات اليد وتقف بجواره صامته تجلب له الهواء. ابتسم رغم المحنة، الجارية والأمير. تذكر سيمون وحسنة بنت محمود ومصطفى سعيد أبطال موسم الهجرة إلى الشمال. واستغرب من قدرة مصطفى سعيد على التكيف مع بيئة الجنوب بعد أن عاش حضارة الغرب زمناً. وعليه أن يمارس الحب والجنس مع أمرأة غريبة يراها عن كثب لأول مرة. وهو يدرك أنها وسيلته الوحيدة للحصول على حريته. حل ظالم وهو المكتوى بنار الظلم. فهل يتركها عذراء أم يصارحها بتفاصيل الصفقة؟ فهل تنقضى الليلة بسلام؟. نعم عرف أنها خدمت أمه سنوات أملاً في الثواب .. وليس هو بالرب الذي يكافئ. والدنيا نار وأمامه امرأة في ليلة عمرها وعليه واجب ثقيل لا يستطيع انجازه. إنما هو يطلب الهواء لا الجنس. والتقاليد أن يأخذها عنوة كفرسان العصور الغابرة. تناول زجاجة العرقى وصب في جوفه ناراً فوق النار. فتح إذاعات العالم وتوقف عند موسيقى راقصة. قام يترنح ثملاً وهى تنظر إليه خلسة وتبتسم. مد لها الكأس، أزاحت يده مستنكرة :

- حد الله.
- هذه من البلح.
- ربنا يهديك.

سكر وهو الذي يشرب المحيط. وفى حدود هذه الغرفة رآها

سمراء ناصعة الأسنان، باسمة الثغر وهو زوجها الشرعي على دين هذه الأمة. فهل هناك شيء آخر. مشكلته هى المدخل .. فكيف يبدأ معها حواراً يؤدى للآلفة والتفاهم. ولابد أنها أحست بحيرته وارتباكه، مدت له طبق الحمام مشجعة..

- كل بالهناء.

بادرة طيبة رغم أنها ضلت الطريق وتوجهت لمعدته. وعليه مساعدتها. قال مرحباً : ((أزيك)) قالت : ((زين .. وأنت)) ((قال كويس بس حران)). دنت منه. حركت المروحة بسرعة. أحس بانفاسها الدافئة. ربت على خدها برفق. ولت هاربة. قام مطارداً بتأثير الشراب .. خمرة من نوع ردئ منحته الشجاعة. قفز خلفها. أمسك بالطرحه بالضفائر. بها عضته خفيفاً. الأشياء. معلقات الزينه تتهاوى. ولابد أن حوشية كانت تتصنت ذغردت .. تعب هو .. استسلم ..

- وبعد يا حليمة ؟

لو تركها عذراء وسافر لاشاعوا أن امتناعه عن الزواج راجع لضعفه. ابتعدت حليمة، دعكت كفها المضمومة بالأخرى لتغيظه. فهذه جولة تحسب لها مستقبلاً حين يستعيدان ذكرى ليلة الدخلة وقد تعايره بهذا الإخفاق. والرجل هنا، قوة، غلظة، شوارب، صوت، عصا. وفى تلك البلاد .. حتى الساقطة تختار صاحبها وتنتقيه من بين الطالبين. وعليه بالتعامل حسب قواعد المكان. لا هو أرادها ولا هى اختارته. أبوها باع. أمه اشترت. الدين أباح. الصفقة تمت. وعوض تناول كأساً وتحول فجأة لحيوان حين وجدها تقف

متحدية. هجم عليها. لوى ذراعيها. شل حركتها. جذبها نحوه بعنف وهذا ما تمنته فاستسلمت راضية وهى لا تدرى خفايا هذا الزواج. يقولون للواحدة منهن (مبروك .. جالك العدل) وعليها أن تهز رأسها بالموافقة. وكل هدفهم ان يكون العريس جنوبياً قادراً على الانفاق، عجوزاً أو شاباً، معتوهاً أو عاقلاً. ؟! وعوض شلالى منتهى أمل الجنوبيات ولكنه عريس طائر لن ترغمة قوة على البقاء. وصرخة الم في غرفة الغرباء ثم طلقة بندقية وزغاريد. قالت له بسعادة لم تشعر بمثلها منذ ولدت:

- أنت زول شقي.
- وأنت شربات.

وشجعته شياطين الخمر في التمادي والعبث فمنحها ليلة فريدة بخبرة رجل متمرس باتت تحلم بمثلها لشهور وسنوات.

- ٧ -

السماء وجهت فوهات براكينها جنوباً. الحرارة تقترب من درجة الخمسين إلا قليلاً وفاقت بذلك كل التوقعات. وساعة الظهر صارت الأرض جحيماً، التهبت الرمال والماء يغلي في الصنابر والناس جفت حلوقها فلاذوا بالظل الساخن يطلبون النجاة .. ولا نجاة. والفرصة الوحيدة أن تغرب الشمس ولا تشرق مرة أخرى طوال أشهر الصيف. والأيدي المتضرعة ترتفع مستجيرة بالسماء ولا محير لأن الشمس قررت حرقهم أحياء. وفى تلك البلاد يحلمون بالشمس

ويتمنونها، فهناك صقيع وبرد وليل يستمر نصف العام .. فلابد من إعادة التوازن لهذا الكون المختل. والربيع الدائم والعدالة مجرد أحلام.وعرض شلالى سيئ التكيف مع البيئة الجنوبية .. بشمسها وقيودها وتقاليدها الجامدة. وهو الآن يستعد للرحيل إلى بلاد الحرية. ولن يلومه لائم بعد أن أمن مستقبل أمه بالمال والخادمة القانونية. لو قص على سيمون أحداث رحلته العجيبة كما وقعت .. فماذا تقول؟ الاقتناع بكل الحجج أمل بعيد وعليه باللجوء للكذب الأبيض، سيزعم لها بأنهم زفوه بالقوة أو حبسوه في كهف فرعونى حتى ليلة الدخلة ووقع على عقد القران والسيوف فوق رقبته وأنه مجرد زواج صورى لأنه نام في غرفة منفصلة .. فهل تصدقه .. لا يظن. لأنه عرفها بأدق تفاصيل طفولته وعلمت منه أنهم قوم مسالمون .. لا يحملون البنادق والسيوف والهراوات، ولو كانوا أشداء لفشل الشماليون في بناء خزائنهم الأول وسدهم الثاني بدون مقاومة دامية. فالهراوات والبنادق مع الصعايدة والسيوف والخناجر للبشارية وبذلك تجاوزت معلوماتها حدود معابد أبى سمبل وكلابشة والمضيق والتاريخ القديم بممالكة المندثرة. فلا ينبغى أن يذكر لها شيئاً لأنها لن تقبل معها شريكة، فهي – مثل نساء قومها – لا تعرف ميوعة العواطف .. وحين ملت زوجها .. هجرته. فهناك .. يفترقون بسهولة عندما تستحيل العشرة. وهنا بيت الطاعة. وحليمة استعملت كل حيل النساء لإفشال نواياه الهروبية، صنعت له حجاباً. تبرجت. وهبته نفسها

بسخاء لا تعرفه بنات جنسها.توسلت. استنجدت بحوشية. بأبيها. تمارضت. بكت. هددت. والمسكينة تجهل أنها فرصته في الرحيل .. لا البقاء ..

- بالله .. لا تسافر.
- أكل العيش يا حليمة.
- عليك الرسول.
- كل الناس يسافرون يا حليمة.
- لكنهم يرجعون.
- وأنا مثلهم.
- أحـــلف.
- والله راجع.
- أحلف بالقرآن.
- صدقيني.
- لابد هناك واحدة أخرى سحرت لك.
- أعقلي.
- لماذا تتعجل السفر الآن ؟
- يا بنت الناس عندي عمل وارتباطات.

ولم تصدقه أبداً. لديها هاجس مسيطر بأنه لن يعود، انهارت وهم يودعونه على المحطة. جلست ماسكة رأسها من شدة التفكير .. دموع .. دموع ..

- عديلة يا ولدى.
- بالسلامة.

وعادت حليمة من المحطة حطاماً. دخلت الدار فوجدته كئيباً، موحشاً. وقالت لحوشية النور في ذهول : (ولدك دا .. زول عجيب، لا ذرف دمعة، ولا ادانى السلام، وكان فرحان بالسفر، أول مرة أشوف واحد فرحان وهو ماشى .. نفسي أعرف السبب ؟). وهذا صحيح، كان قلب عوض شلالى يتراقص طرباً والقطار يتحرك مغادراً محطة كلابشة. نظر من النافذة ورأى المودعين والقرى كالأشباح، وشريط سريع يعبر ذاكرته، الدمرداش يصرخ فيه بملابس سجون الشمال .. يا جبان .. يا جبان. وعبده شندى في مكان ما .. الخانكة أو العباسية يغني يا بلدي.. يا بلدى، وأمه وقد فقدت الابصار ليس عندها ما تخسره سوى الروح. وحليمة صارت مجرد وسيلة للنجاة، وزحمة وجوه، خاله وعباس توفيق والعمدة والصول سر الختم وبحر جز ولى. والدكتور. كان غاضباً منه ولابد أن الرفاق في مقهي ريش يتهمونه .. لكن بماذا؟ ورأى قرص الشمس الجهنمي، وتذكر حسنة بنت محمود ومصطفى سعيد، والواحات، تذكر هذا كله ولم يشعر بشيء له معنى خاص، مجرد أحداث وأسماء تملأ مساحة متواضعة من الجمجمة، فأغمض عينيه واستدعى وجه سيمون المريح.

الفصل الثالث

أحزان حوشية وحليمة

- ١ -

انتظار حليمة يطول، يطـول، لأنهـا مثـل نسـاء النوبـة المهجورات، كلهن ينتظرن رجالاً تغربوا بعيداً في مدن مصر وبلاد العرب ووراء البحار. يضيعون زمناً، يتوهون وقتاً، ينبهرون حينـاً. ثم ينتبهون ويستردون وعيهم. فالذى يجمع المال يعود منتصراً. الذي يجد عملاً مستقراً ومسكناً في بر مصر .. يستدعى زوجتـه. الـذي ينسحق .. يعلق الأمور. وكلهم لهم عناوين وأمكنة معروفة ويراسلون ذويهم .. لأن الخطابات ..نصـف المشـاهدة. لكـن زواج حليمـة وانتظارها بلا نظير. تعد الأيام. الشهور. وينقضي العام كأنه عمـر كامل. والغائب قلبه صخرى، رسالة واحدة بعث بها منـذ رحـل. لا حدد موعداً للإياب ولا عرفهم بعنوانه. دعت له حوشية النور بالفلاح والصحة ووفرة الرزق، ودعت عليه حليمة. يزعمون مآواه البحر .. أليس للبحار شواطئ وموانئ .. رجل بلا مرسي .. فأين يكـون ؟. وعمر زواجها أقل من شهر. ومحنتها أنها أحبتـه، والحيـاة بدونـه خواء، فأى زواج هذا؟ انتقلت من خدمة زوجة الأب لهـذه العجـوز المتسلطة المخرفة. قبل الزواج خدمتها وسـاعدتها بحكـم القرابـة والجوار .. فكانت تشكرها وتدعوا لهـا. الآن تآمرهـا .. اليسـت جاريتها ومن اختيارها ؟.

- آكل يا حليمة
- حاضر
- أشرب
- حاضر
- اسنديني
- حاضر

أبداً لا تكف عن المطالب، بالليل والنهار تطلب : (وديني لدكتور المركز، حرانه هوييلى، تربسى الباب يا حليمة، مين اللي كان يخبط يا حليمة، رايحة فين، بتكلمي مين، حليمة، حليمة،). خادمة. دادة. مرافقة. مسامرة. جارية. أن تأخرت في الرد .. نهرتها. أن تأففت .. شكتها. أن خرجت .. منعتها. حتى ضاقت بها وبنفسها فسبتها وصرخت شقت ملابسها، وكادت تحرق نفسها بالجاز ثم جمعت ملابسها وعادت لبيت أبيها .. حالفة ألا تعود ما لم يأت زوجها أو يحررها بالطلاق. ومن لجأت إليه، يقف ضدها، ناصحاً، معنفاً ..

- ترفسين النعمة يا بنت شاية (*)
- آكل الملح وضميري مرتاح

(*) شابة : اسم سيدة

- وتتركين حوشية وحدها
- تغـــور
- والناس .. ماذا يقولون

زوجتني لرجل وليس للناس وحوشية النور

- ما هى مشكلتك بالله عليك.. القروش وعندك
- كثير
- هل تمنعك حوشية من الصرف؟
- أبدا
- هل هي بخيلة ؟
- أبـــدا
- أين المشكلة إذن؟
- زهقانة .. روحي ستطلع
- أنا الذي سأزهق روحك يا بنت الديوس (**) .. طلاق ثلاث لن تباتى إلا في بيتك ..

وتعود حليمة بالأمر، منكسرة، مهزومة، مرغمة، لكي تزداد حوشية جوراً وتسلطاً وتمعن في أذلالها بالمطالب السخيفة التي تتجاوز حدود الممكن وحسن العلاقات. وحليمة حائرة. لا تدرى لمن تذهب، أبوها غبي وزوجها ظالم وما من أحد يفهم محنتها ومحنة النساء في بلاد الانتظار.

(**) الديوس: القواد

- ٢ -

نساء. نساء. أين تذهب لا تجد غيرهن، يزحمن الأسواق، الشوارع، الأعراس، المآتم، مكتب البريد والبرق، عند محطة القطار، بجوار حنفية المياه العمومية، جالسات فوق المصاطب متشاجرات، متوترات، زاعقات، متخاصمات.

وفى الليل، تبدأ مأساتهن مع الوقت البطئ والرغبات المكبوتة والحنين للرجال الغائبين. نيران تؤججها حرارة الطقس ولا يعرفن كيف يتغلبن عليها بغير الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم والصلاة والصبر، والصبر. الصبر. وحليمة مثل غيرها من الزوجات الشابات الوحيدات معرضة للمطاردة، قلة فقدوا ماء الحياء وحمد توفيق زعيمهم، كان السبب وراء مقتل عذراء وطلاق سيدة ومازال قادراً على الإفساد. آل توفيق عصب قبيلة العلياب، أحدهم شيخ الخفراء ويسعى للعمودية، والثاني ذئب. والعار للنساء ولا مؤاخذة على الرجال. وحليمة صيدة المرتقب. بخبرته أدرك حرج موقفها الدقيق الشائك فوضعها تحت المراقبة. ترصدها. غازلها. وراءها وأمامها .. يكون أينما تكون. حذرته، سبته، غيرت مواعيد خروجها. انقطعت عن التردد في أماكن يرتادها. فظل صابراً. وحليمة تعرف مدى وقاحته وفجره، لو شكته أو صدته بعنف، سيجد الوسيلة لتلطيخ سمعتها بالشائعات الكاذبة كما فعل مع غيرها. فتبادله نظرة رجاء، بسمة خوف. ترجوه بعينيها أن يدعها وشأنها لكن هذا الإبليس كابوس لا ينزاح من طريقها. وبين ليل ينقضي مقلقاً بحره وهاموشه وأحلامه

المزعجة، ونهار يطول، وتسلط عجوز مستبدة، كانت حليمة تعاني المرارة حتى جاءتها رسالة أنقذتها من جنون وشيك وجعلتها غير من كانت. نادت على الحاج أحمد عباس وعرضت عليه الرسالة للمرة الثانية، عرفت مضمونها وتود المزيد، قال أحمد عباس ساخراً (من تانى يا حليمة) ؟.

- نفس أفهم زين.
- هو قرآن يا حليمة .. حاضر .. أفهمك.

وأحمد عباس، صندوق اسرار القرية، يتعجب من هوس حليمة برسالة عادية من ورق، عشرات المغتربين يبعثون بجرعات التصبير هذه .. سأحضر أن شاء الله أول العام القادم ومرسل لكم المال اللازم لترميم السبيل وتوسيعه وتوصيل الماء والكهرباء وشراء الثلاجة ومراوح السقف وجهاز التكييف، فربما يحضر معي زوار .. وأرجو من السيد الوالد أن يعاونكم في تذليل العقبات. وأخيراً سلامي لأمي وحليمة وعباس توفيق والحاج أحمد عباس. وكل أهل البلد خوفاً من النسيان، وأرجو أن تعرفوني إذا كان الدمرداش قد أفرجوا عنه أم لا. وسلام خاص لقارئ الرسالة.

- فهمتى
- وقال سلامى لحليمة
- الجواب ذاته باسمك يا بنتى
- يعنى قال سلامي لحليمة

- والله العظيم قال
- طيب وأول السنة يعني متي ؟
- أول السنة يا حليمة
- يوم كم ؟ .. شهر كم ؟
- الله أعلم
- وعنوانه ؟
- من غير عنوان .. لكن ورق البوستة والختم من بلاد بره.
- ومن هم الزوار ؟
- ناس يا حليمة .. بنى آدمين
- رجال يعني ؟
- وممكن حريم
- حد الله من كلامك
- يا حليمة .. كتاب الله يقول مثني ورباع
- أنتم دائماً تقولون الكلام الذي ينفعكم
- استغفر الله

تلتقط حوشية النور الأصوات بسمعها المرهف. تنادى متسائلة:

- من عندك يا حليمة
- أنا يا خاله حوشية
- خير يا حاج

- كله خير
- بالله عليك .. أريدك في كلمة يا حاج

ويدخل أحمد عباس مبسملاً. ينحني رغم شيخوخته ليقبل يدها، تدعو له بالصحة والعافية وتدنو برأسها هامسة :

- هذا المكتوب به كلام غريب يا حاج.

انتظر الحاج تفسيراً، فهو لا يدرى ما ألم بالمرأتين المعتوهتين من رسالة مكتوبة بكلام عربى فصيح. أضافت حوشية بحزن عميق.

- هل فعلها وتزوج الخوجاية يا ربي ؟
- خواجاية ؟
- وطى صوتك يا حاج
- ما الموضوع يا حوشية ؟
- آه يا حاج .. هذا الولد حكايته حكاية.

ودخلت حليمة بالشاى متلصصة، تريد هتك السر أو مباغتة العجوز الشاكية. وهى لا تبالى بما يقولون. يكفى أن عوض شلالى آت حتى لو صحبته ألف أمرأة. وهذه المرة لن يفلت منها. ستستعين عليه بأمهر ساحرات الجنوب. ستعمل له حجاباً متقناً لن يقدر الجن الأزرق على فك عقدته.

- ٣ -

اليوم الأول من يناير الموافق العام الثالث للرحيل، لا تسلمت

رسالة أخرى إلحاقاً للأولى ولا أبرق عوض شلالى لها محدداً تاريخ الوصول، ومع ذلك .. تترقبه وكأن مجيئه في حكم المؤكد. رفعت درجة الاستعداد. بخرت الدار. عطرت الزير. كنست حول البيت. جهزت الذبائح والطيور. تخضبت بالحناء. تعطرت. لبست الحرير الغالى فبدت كأجمل عروس وسبقت الجميع للمحطة وفوق رأسها طبق الفيشار والبلح والسؤال يتناقله الناس يبحث عن إجابة: حليمة تنتظر من؟ وحوشية النور ظنت بعقلها الظنون فقالت: ستار يا رب. والناس باتوا مثلها يشكون في سلامتها .. والا بماذا يعللون هذا النشاط المحموم للقاء رجل مازال في حكم الغيب . ولقد مر القطار بصفيره وركابه وأحلامه متجها إلى أسوان، بينما حليمة واقفة كالمذهولة .. حتى نبهتها واحدة ..

- القطار فات يا حليمة.
- قطـــار!
- غداً يأتي بالسلامة.
- غـــداً .. !
- ربنا يصبرك.
- الصـــبر !

غادرت المحطة يائسة، تائهة، حطاماً. واتجهت لمكتب التلغراف.

- عندك خبر يا يزيد أفندى.
- خير يا بنت القبيلة.
- تلغراف من الزول
- من الزول ؟
- الأفندى ابن حوشية.
- وهل هناك زول آخر غيرى؟
- كل كلامك مزاح.
- السلام أولا يا حليمة.
- وتربة النبي أنت فاضي.
- سلام الله واجب.

يده الممدودة عبر النافذة الصغيرة دعوة مفتوحة للتواصل والحب البرئ وابتسامته المرحبة لا تخفى أنياباً مفترسة مثل حمد توفيق، أنه مجرد مراهق خجول. وهى لا تخشاه مع أنه أحد المطاردين، لأن محاولاته الغزلية لا تتجاوز حدود مكتب التلغراف. أنما يحيرها سؤال: أيفعل هذا مع المترددات عليه أم أنها حالة خاصة ومهما كان من أمره، فهى لن تقدر على مجاراته وهى في عصمة رجل آخر. وقد يكون المراد لو تحررت بالطلاق. ولا بأس من الاحتفاظ به ليوم الحاجة. ناولته كفها مبتسمة فأمسك بها بين راحتيه الدافئتين المرتعشتين، سرت إليها حرارته، أقشعر بدنها. اضطربت

سحبت يدها. انصرفت تلملم ثوبها وكادت تكبو ودقات قلبها تتسارع شوقاً وخوفاً.

- ٤ -

مر الشهر الأول. من العام الثالث ولا خبر. وحليمة تبدلت. جنت. لا أصبح نهارها معاشاً ولا بات ليلها لباساً. تتلهف لرسالة أو برقية. تتعلق بصفير القطارات العابرة ونفير السيارات وأزيز الطائرات تقفز نحو الباب تفتحه لكل طارق. تستبشر بأى صوت ينادى. انتظار .. انتظار .. لكنه مدمر ، متلف لأقوى الأعصاب ..

- الصبر يا حليمة ..
- لماذا انقطعت أخباره ؟
- الصبر يا بنتي .
- لماذا لا يقول لنا عذره ؟
- قلنا الصبر .
- ولدك كذاب يا حوشية.

حليمة صارت حديث العواجيز الثرثارات والمطاردين وهواة الأقاويل. جاءت. جلست. كلمت. لبست. أن ذهبت للمحطة قالوا .. جنت. أن وقفت مع عابر .. قالوا فجرت. شاهدوها مرة تجرى خلف أحد العائدين مناديه: يا عوض .. يا عوض شلالى. المسكينة شبه لها. وهى تدور، تلف يومياً بين مثلث الأمل، مكتب التلغراف. المحطة.

مكتب البريد. ثم ترتد لجلستها الحزينة بجوار الحائط .. نفس المكان الذي ضيعت فيه حوشية النور عمرها. وأشاعوا أن حاسدة ضربتها عين للعز الذي ترفل فيه، المراوح والكهرباء واصلاحات الدار والمال تنفقه بغير حساب .. فكم من الجنوبيات ظفرن بهذا.؟ وقالت عجوز حاقدة: ((عشنا وشفنا نساوين آخر الزمن .. بالله يا ناس المرة دى ناقصها ايه؟)). وهددها أبوها بالضرب والقتل ..

- كفانا فضائح يا حليمة.
- وماذا فعلت ؟

الزمى دارك.

- لا أطيق دار البومة.
- اعقلى يا بنت شاية.
- نعم .. أمى شاية التى ماتت من ظلمك.
- أمك كانت مجنونة مثلك.
- البركة فيك.
- سأكسر رقبتك.
- على الأقل أرتاح منك.

جرى خلفها بمنجل .. شاتماً أمها والداية التى سحبتها والماشطة التى ختنتها. حال بينها الناس. وحليمة سيان عندها الموت والحياة. ذهبت لمكتب التلغراف، ترجو يزيد عبد الوهاب أن يكتب برقية لزوجها.

تساءل يزيد بدهشة :

وعنوانه ؟

بلاد بره.

ضحك من بلاهتها وقال مغازلاً ليمص ثورتها : ((سيبك من برة وخلينا جوة أحسن)).

- عيب يا أفندى.
- قلت الحق والله.
- يا زول مالك .. مخك طار.
- ولا أنام الليل.
- ثم ترنم بمقطع من أغنية جنوبية : "الليل ما بنوم .. باعد النجوم)) . تركته يغني مبتعدة وهى تتمني البقاء بجواره تحكى له عن أوجاعها، كان من العدل أن تكون من نصيب هذا الجنوبي المستقر وليس لذلك الطائر. وعلى الناصية، وقف حمد عثمان، مترصداً شادياً بأغنية النوبة الخالدة : ((اسمر اللون .. يا أسمر اللون)). فبعثت إليه ببصقة غليظة وأسرعت بدخول الدار وأقفلت بابه وأنهارت باكية.

* * *

- ٥ -

منتصف العام الثالث للانتظار.. جاءها طواف البريد لاهثاً، كان يجرى فرحاً،.. البشارة يا حليمة جواب مسجل يا حليمة، وهبته اسخى اكرامية فى تاريخ النوبة واستبقته لقراءة الرسالة الغالية، فليس لديها الصبر والوقت للاستعانة بكاتم الأسرار بالحاج احمد عباس..

- معايا يا حليمة ؟
- أكمـــل ..
- هل أعيد قراءتها ؟
- كفى ..
- سطور جافة. رسالة قاتلة من زوج ملعون. صدمت. تحطمت. انهارت. بكت. كادت. تصرخ. دارت بها الدنيا.
- كلونيا يا ناس.
- اسقوها ماء.

أفاقت. تنبهت. استغفرت. استبشعت الوجوه المحيطة بها. وجوه كريهة ورجال بلا قلوب وقرية تستحق الحرق، فالذى صبرت عليه طويلاً يعتذر عن الحضور لطارئ ألم به ويعدها بفرصة قادمة. ويوصيها بأمه خيراً ويشكرها. ثم شيك بمبلغ إضافى. أمه والمال. أما هى، الزوجة .. لا شيء. الحسنة الوحيدة فى هذه الرسالة أنها معنونة. وأخيراً خرج التمساح للبر وبوسعها مكاتبته. فماذا تقول له؟ هل تستجديه حقها الشرعى. من قبل أهمل أمه تسع سنوات وهى ضحيته التالية. ولن يستجيب مهما توسلت . ولا بديل أمامها سوى طلب الطلاق، ذهبت لأبيها باكية وبيدها الرسالة .. فقال ما توقعته ..

- قروش وأرسل لك بالزيادة.

- نعم.
- ودارك أحسن من دار العمدة.
- كلام زين.
- وعندك الحرير والذهب.
- الحمد لله.
- وتأكلين أفضل الطعام.
- أنت لا تفهم هم الحريم.
- فهمينى يا بنت شاية ؟
- لسنا بقراً ندور بالساقية ثم نأكل النجيل ونرقد ننام !
- قولى كل ما عندك.
- ظلمتونى وليس عندكم جنس الدماغ.
- كلمة وأقطع لسانك.
- تفلحون فى قطع الألسنة والرقاب ولا تعرفون الأصول.
- أخرسى يا بنت الديوس (*) .

اندفع نحوها بثقله. برك عليها. لكمها. عضها. أطبق على رقبتها. صرخت أمرأته. صاحت النسوة. أمسكن به. أفلتت حليمة. جرت ذهبت لمكتب التلغراب وهى مصممة على قرار اتخذته ولن تتراجع عنه. لطمة موجهة لناموس الرجال. لتقاليد الجنوب. وكانت أمام موظف التلغراف وقد قررت ..

- تحفظ السر يا يزيد عبد الوهاب.
- سرنا فى بئر يا حليمة.

(*) الديوس: القواد

أمام موظف التلغراف وقد قررت ..

- تحفظ السر يا يزيد عبد الوهاب.
- سرنا فى بئر يا حليمة.
- ولا يعرف مخلوق.
- لا تخافى.

يزيد أفندى ذهب خياله بعيداً، خمن وتوقع. أخترق الأثواب والقيود. تذكر الكلاب المتشابكة. تذكر الأعراس والقصص الفاحشة التى يسمعها من المغتربين العائدين عن النساء والمواعيد والليالى المسماة بالحمراء، تخيل أنه وحليمة معاً، حلم بأشياء ومواقف. تنبه لنفسه على صوتها الآمر:

- أكتب يا أفندى ..

يكتب ماذا؟ نهارك أسود يا يزيد. أن أحداً غيره هو السبب. كان يمزح دائماً. لكن شيئاً لم يحدث بينهما. مجرد لمسه يد. ضحكة. أمنية. تساءل مرعوباً وشفتاه مع أسنانه تقومان برقصات فوضوية :

اكتب ماذا ؟

تلغراف للزول والعنوان عندى.

تنهد يزيد بارتياح .. التقط أنفاسه وقال ساخراً :

والمطلوب منه.

- ثلاث كلمات.
- قولى.
- يا يحضر أو يطلبنى عنده .. أو .. أو

- أو ماذا ؟
- أو يطلقنى .

توقف يزيد عن الكتابة. وضع القلم جانباً. رنا إليها طويلاً .. فهذه أول مرة، منذ عين موظفاً بالتلغراف، تطلب فيها أمرأة نوبية الطلاق برقياً. ولو طاوعها، سيقع اللوم عليه، فهو أحد أفراد قبيلتها. فهل يتنصل من الوعد. أفاق على صوت حليمة .. تتعجلة :

- كتبت.
- والوالد .. ما رأيه ؟
- لا والد ولا والدة .. أكتب أو أذهب الى كوم أمبو.
- وبعد الطلاق.
- الله موجود.
- طيب .. أبصمى هنا ..

وحول يزيد مؤشر المذياع الصغير لتنبعث أغنية شمالية رقيقة معبرة بالصدفة عن المناسبة الحزينة: (ما هى واحدة من الأنين .. يا تاخدنى يا أرجعك).

- سامعة يا حليمة.
- يأخذكم الله.
- كلنا.
- ليس فيكم راجل (عديل [*] يا جنس العلياب

---

[*] عديل : محترم.

- الله يسامحك.
- هذا رأيي.
- ندخل فى الموضوع.
- تدخل نار جهنم أن شاء الله.

حدة لسانها لا يفصح عن مكنون قلبها. وهى ليست جادة فى صده وسبه، فالسب أحياناً فى الجنوب دعوة مستترة للحب والتواصل، والتقاذف بالحجارة مثل تبادل الورود. ولو أحصت عدد مرات ترددها على مكتب التلغراف، لأدركت حقيقة مشاعرها. لكن مأساة القلب فى هذه البلاد أنه خارج الحساب. وحين استدارت حليمة منصرفة، ودعته ببسمة اعتذار وهى تحلم به زوجاً يئوب كل يوم يملأ عليها البيت بالصوت والونسة. وهو من تتمناه، فليس بشعاً ولا ذئباً مثل حمد توفيق الذى تابعها وسد عليها الطريق، حاولت تفاديه فراوغها. انحنت على الأرض وأمسكت بحفنة تراب القتها على ملابسه البيضاء.، شاتمة: (داهية تشيلك يا فاسد).

رد عليها الأهانة بمثلها: (يا بتاعة يزيد). واجهته بغضب وكلام جارح:

- أبحث عن عارك يا تلفان.
- سأفضحك.
- الفضيحة عندكم يا صنف الوهباب.

قبائل ونجوع ومعايرة، والوهباب فرع من العلياب. سمعته يتوعدها. وهى تحتقرهم. دنيا للرجال كل شيء لصالحهم. يأمرون وعليهن بالطاعة. وقفت أمام الدار ولم تدخله. قرف وضيق بالمكان والبشر، وحوشية تجلس كالأميرة تدخن البايب وتطلب كل ما تريد. وحليمة لا تصدق أن حوشية هذه لم تقرب الرجل سوى شهرين، طوال عمرها. هل هى نبيه أو أسطورة؟ وهل أصابت حين أبرقت لزوجها؟ وما هو رده المتوقع؟ وماذا يقول عنها الناس. وهى فى جلستها الحزينة، سمعت صوتاً دافئاً لعامل صعيدى، يغني لليلاه البعيدة : ((ولا جواب جاني، خاين يا زماني، وديت محبوبتى وين، خاين يا زماني)). نفس المقطع يعيده، مرات ، أنه معدول الصعيدى الذى يجوب القرى مع المقاول الجنوبى لترميم الدور وبياض الواجهات وتوسيع غرف الضيوف. كل المغتربين يعيدون تشكيل البيوت بالإضافة والحذف والتبليط وتسقيف الأحواش المفتوحة. وقد تعاقدت مع المقاول منذ أسبوع للقيام بالتحسينات المطلوبة بالحاح من حوشية. وهذا الصعيدى معه. يحرس الأخشاب والمون ليلاً ويعمل نهاراً فى رفع الأتربه والرمال. وأبداً لم تشعر به يوماً ككائن بشرى له وجود مميز من الممكن أن يغنى ويشجى السامعين : ((ولا جواب جانى)). لمن يغني يا تري؟ صارت مشدودة لصوته البديع الحنون

لدرجة التوحد. أنزلقت من عينها دمعتان. أهتز جسدها من الانفعال وتمنت لو يستمر هذا الغناء الى الأبد.

– ٦ –

أغسطس الجنوب الجهنمي .. أبغض شهور السنة لا نسمة هواء تزيح هذه الغمة ولا نوم يأتى ليريح الجفون المتعة. والمُراوح المعلقة تغربل صهداً. الشمس تحرقهم نهاراً والحر يخنقهم ليلاً .. فأين الملاذ ومتى الخلاص. وحليمة وحوشية ترقدان فى سريرين متجاورين وسط الحوش المفتوح هرباً من الغرف الفرنية.

وحليمة تتقلب كسمكة خرجت لتوها من الماء .. أف .. أف. تستجلب الهواء بطرف جلبابها. أرض الجحيم والنساء المهجورات. وقد مرت الأيام ولم تتلق رداً على برقيتها فأعقبتها بأخرى ولا رد حتى أنها شكت فى صحة العنوان. ومهما حلفوا لها لن تصدق أن حوشية صامت الدهر كله عن جنس الرجال.وليل حليمة يطول. لو نعست برهة، داهمتها الأحلام المقززة، رأت رجالاً عراه يتبادلونها، حمد توفيق ويزيد عبد الوهاب والعمدة واحمد عباس وآبوها، وعوض شلالى – للغرابة يقف عن قرب مشجعاً ومصفقاً ومنظماً. والذى أنقذها منهم هو معدول الصعيدى. هوى بهراوته الغليظة فوق رءوسهم وسترها بعمامته وحملها بين يديه القويتين فتعلقت به واحتضنته ثم قامت فزعة من غفوتها مبللة بالعرق خجلة من نفسها.

استغفرت وصلت ركعتين فى غير موعد صلاة. فأين الفجر بنوره يطوى ليل الشياطين الجائم؟ بل أين الهواء وأين عوض شلالى. وحوشية بين النوم واليقظة .. تتساءل :

- تربستى الباب يا حليمة.
- تركته مفتوح.

هذا الرد المستفز .. دعوة للشجار، سعت إليه وأفتعلته، محاولة ضرورية للخروج من مأزق الوحدة والصمت ومداعبات الشياطين، نعم .. لابد من شجار وضوضاء وصراخ. وحوشية النور أما أنها نائمة وتحلم بالأبواب والترابيس، أو ترفعت عن معركة صوتيه ليس أوانها الليل، لكنها مازالت تتكلم ..

- أشرب يا حليمة.
- قومى أشربى.
- ريقى ناشف يا بنتى.
- عندك الثلاجة والزير.
- اسقيني الله يسترك.
- يسترني .. يفضحني .. ليس مهماً.

لابد من معركة، لماذا ينامون هانئين وهى توشك على الجنون. وحوشية ابتلعت الأهانة وصمتت. هذه العجوز النكدية المناكفة المتعجرفة .. تآمرت عليها وحرمتها فرصة النجاة. وعليها أن تصرخ مدعية أمراً لم يقع، عقرب لدغتها، لص داهمها. عفريت

أخافها. اى شيء. وهذه الليلة الحارة لن تمر بسلام قبل أن تخلف كارثة تتحدث بشأنها الأجيال. فهل تصرخ وتعلن موت عوض شلالى وتقبل فيه العزاء؟ هل تشعل النار فى القرية وتحرقهم أحياء؟ هذه ليلة الجحيم. النار فى الأرض والنفوس ورغبة وحشية فوق طاقة البشر تكوى جسدها. ومعدول الصعيدى ساهر يغني كعادته، وقد أعلنها المقاول بانتهاء عمله وغداً يرحل ومعه الصعيدى لبيت آخر ربما فى قرية بعيدة ولن تجد صوتاً حنوناً يؤنس وحدتها.والليل طويل، تغمض عينيها قليلاً لتقع مرة أخرى فريسة للأحلام القذرة، رأت عوض شلالى عارياً بين عشرات النسوة الشقروات، يتبادلنه خطفاً وجذباً، تمد يدها لتخلصه فيمسكن بها ويحاولن تمزيقها بأظافرهن الطويلة .. لولا الصعيدى، للمرة الثانية، ينقذها فى اللحظة الأخيرة بينما كل رجال البلد يتفرجون شامتين. قامت. طار منها النوم وراحة البال. شربت ماء بارداً. صلت وأطالت قرأت آية الكرسى مرات. لكن ما تعانية فوق مستوى الصلوات وآيات القرآن ولابد من حضور عوض شلالى .. حالاً. رجل من نوع غريب وكلامه أكثر غرابة. كله اسرار. لم تره يوماً يصلى أو يقرأ القرآن ولا يبسمل قبل الطعام أو يحمده بعده. وهى لا تدرى لماذا سجنوه عشر سنوات؟ لماذا أختفى تسع سنوات. سمعته مرة يخرف باسم الدمرداش .. فما الذى يربطهما معاً. ومرة وهو سكران قال وداعاً يا دنقلة. فمن هى؟ هل اسم

الآخرى كذلك. سألته بحياء، فقال لها يا عبيطة .. دنقلا هذه بلد فى السودان وأهلها يتكلمون لغتنا وفى الزمن القديم .. كانت عاصمة النوبة السفلى. وكان لبلاد النوبة حاكم وفرسان وعلم وكيان مستقل .. فهل عرفت من هى دنقلا الآن؟ وتذكرت أولئك الرجال السود جداً الذين يشرطون وجوههم بثلاث شرطات طولية ويسمون الواحد منهم دنقلاوى ويسكنون أقصى الجنوب .. فلماذا يحلم بهم ..؟ سألها يومها:

- ماذا فهمت ؟

- زوجتك الآخرى اسمها دنقلة.

ظل يضحك طوال النهار ويقول لها كلما جلسا أو تحدثا: ((يا هبلة .. فى ست فى الدنيا اسمها دنقلة)) وهى على يقين بأن هذا اسمها. والحر لا يطاق. وهذا الليل كابوس مقيم. والزمن توقف عند لحظة واحدة لا يتزحزح لقدام أو وراء. وحوشية شخيرها مقلق ومحطم لأعتى الأعصاب. وما حال نساء النوبة الآن؟ أهن يتعذبن مثلها ؟. والصعيدى يغني: ((عطشان يا صبايا)). العطش حتى الهلاك فكيف السبيل للارتواء؟ وفى الليلة القادمة، لن تسمعه .. وهذه ليلة الوداع إذن؟ وصوته الشادى .. سلوانها فى هذا الصمت المتآمر. الرحمة يا رب.. فأى ظلم أن تنتظر أكثر من ثلاثين شهراً. وعشرات يقفون رهن أشارتها؟ وهذا الصعيدى .. حتماً يغنى لها وهو الهدف. آدم الوحيد فى ليل الوحدة. ولابد أن توجه اللطمة من حيث لا يتوقعون. تهينهم مثلها أهانوها. إنسان نكرة . كل وقته مكرس للعمل،

حتى كوب الماء يطلبه باستحياء وهو على بعد خطوات، لأن الأغراب، والشغالة منهم بالذات، لا يدخلون بيوت القرية، ومثل هذا الصعيدى، المعفر، المتسخ، الغليظ، الخشن، الذى لا يستحم إلا نادراً، آخر من تفكر فيه جنوبية لو فكرت. همة الأول وشاغله، لقمة العيش، ولا يعانى مما تعانى منه حليمة أو غيرها، فهذا ترف لا يستطيعه، ولكنه الليلة، حلم حليمة ووسيلتها المختارة لتدمير قومها والانتقام منهم. وليس مطالباً بغير شجاعة الفرسان، ستفتح له الباب وعليه بالاقتحام وأخذها عنوة وستمنحه الفرصة بتصنع النوم.

- يا حوشية .. يا حوشية النور .. يا بنت الكلب.

لا صوت. لا صدى. تنام هانئة. حليمة والشياطين للمرة الثالثة صلت صلاة لا تعرف عدد ركعاتها .. والنار لا تخمد. فلا عوض شلالى جاء. ولا حليمة النور قامت. ولا النهار طلع. مؤامرة مثلثة. كالتائهة أو المخدرة قامت. تعطرت. فكت ضفائرها. لبست الستان. فتحت باب الحوش وعادت للسرير تنتظر فى وضع الأغراء. تنتظر. تنتظر. وابن الحمار مازال يغني. هذا الجبان. اقتربت من الباب ونادت هامسة: ((أنت .. بس .. بس)). لا شيء. انتظرت. لم يأت. لن يأتى. دخلت الكانون. حملت بقايا دجاجة وعيش ((الملتوت)) وزجاجة ماء مثلج. ولآخر مرة، نظرت الى حوشية .. تتمني أن تصحو. خرجت. وقفت عند الباب متلفته، سارت وكانت على رأس الغريب واقفه كالشبح ..

- خذ كل يا زول.

معدول الصعيدى نظر بفزع لطبق الطعام الممدود إليه. أصيب بشلل مؤقت، ما هذا؟ من هذه ؟ وحليمة فوجئت باضطرابه وهى التى ظنته ساهراً يغني لها، دنت منه مطمئنة:

- أنا حليمة يا ابن الناس.

حليمة ست هذه الدار بجانبه بعد منتصف الليل فى قرية نامت حتى كلابها. هذه جنية ملعونة تتخفى فى ثياب أمرأة. وهو على يقين بأنه لو مد يده لطبق الطعام، سيمسك بشيء من الاعيب الجان. وهو إنسان مسكين فى حاله، فلماذا يريدون به الشر؟ قرأ فى سره آية الكرسي بسرعة، لكن هذه جنية محصنه ولم تتبخر، قالت له وهى تدنو، ((خذ أشرب الموبه وضيع الخضة)). ابتعد عنها قليلاً، ولو ساعدته قدماه المشلولتان .. لأطلقهما للريح. حاول القيام فأمسكت بكتفه واستندت عليه. احس بالخدر والدوار حين تنسم رائحة عطر الجنوب، خرج صوته أخيراً من شلل الصدمة .. تساءل خائفاً:

- ست الدار ؟

- وماذا أكون غيرها .. !

هذا صوتها بالتأكيد، سمعها مرات تنادى عليه لتناوله الطعام أو الشاى، وربما لتنبهه لأمر ينبغى انجازه حين لا تجد المقاول. فما الذى جاء بها؟ أم جنية تتلاعب به، أو ست هذه الدار .. أخطأت

الطريق وطنته شخصاً آخر ..

- أنا معدول يا ست هانم.

- وأنا حليمة.

- تطلبين أى خدمة.

- خفت عليك من العقارب والثعابين.

- تعودت يا ست هانم.

- أتفضل نام بالداخل أضمن.

أين؟ داخل الدار؟ والله العظيم هذه جنية وتريد به الهلاك. ولو كانت حليمة .. يستحيل أن تقوم بهذا، لأنه جاب هذه القرى لسنوات وسكانها لا يختلفون عن أهل الصعيد فيما يختص بالشرف أن لم يكونوا أكثر تزمتاً. وقد تعامل معهم محترماً تقاليدهم فوثقوا به وعدوه واحداً منهم. ولا يصدق مطلقاً ما يدور امامه. أشعل عود ثقاف لكى تحترق لو كانت جنية .. لكنها اطفأتنه مؤنبةَ : ((حد يشوفنا يا أهبل)). هذه جنية من نوع عجيب لا تؤثر فيها النيران وسور القرآن. فهل يصرخ طالباً النجدة أم يهوى فوق رأسها بالهراوة؟ لكنه بدا يضعف، فهذه أول مرة فى حياته تلمسه امرأة من الجن أو الأنس وتسعى إليه، مد يده بحذر، امسك بها، لمس شعرها، سرت إليه حرارتها وجنونها. لتكن اى شى، جنية او ست هذه الدار. فى الحالتين سيفوز بالذى. سمع عنه شابا ومراهقا ولن يخسر الكثير. وهى جنية فهذا اقرب

للصواب.. ستهبط به تحت الارض ويأكل مالذ وطاب، لحوم وتفاح، سينجو من المش المدود وعيش البتاو والبصل اللاذع، سينجو ايضا من العمل الشاق وستتوجه اميراً للجن. جنية. ملاك. امراة. جنوبية . صعيدية. لا فرق الان. سار خلفها طائعا يتوق للعالم المسحور الذى سيدخله، تسللت به لاول غرفة قابلتهما واندمجا معا فى لحظة رائعة خارج حدود الزمان والمكان .

- ٧ -

حوشية النور شبعت نوما ،اعتدلت جالسة تمسح العرق الغزيرَ وتتعجل الماء بعد ان جف حلقها اثر حلم مرعب، رأت اشباحا تتسلق الجدار وتنزل للحوش ، راقبتهم وهم يدخلون حجرتها ويعبثون فى صندوقها الأثرى، حيث تحتفظ بأشيائها والكفن. منذ أصابها العمى وكل أحلامها تتركز فى السرقات واللصوص بعد تكرر غزو عصابات الصعيد لقرى تهجير بلاد النوبة. وحلم الليلة .. ما أطوله .. ((اللهم أجعله خير)). لقد تمردت عليها بنت شايه، لولاها، لبارت، وما أكثر البائرات فى هذه البلاد. نساء جاحدات، ناكرات للجميل، والحق عليها، أختارتها وينبغى أن تتحمل حتى يعود ولدها ويظهر لها العين الحمراء، وستأمره باستبدالها ..

- يا حليمة ..

نادت مرة ومرتين، توجست، اقتربت من سريرها، مدت يدها

وهى تنوى قرصها بشدة حيث يوجع. كان السرير خالياً. نادت، لا أحد يرد، تحسست .. لا أحد. أكان حلماً ما شاهدته أم هاجم اللصوص البيت وقتلوها. وتصنتت. حركت رأسها فى كافة الاتجاهات. وهى قادرة بسمعها المرهف على التقاط أخفت الأصوات، طيران الخفافيش وزحف الهوام(*). وهمسات المتآمرين. ثمة شيء مريب تحاول تحديد مصدره. صوت أو أصوات خشنة وناعمة. تسير بخفة القطط، بحذر الثعالب. بلؤم العواجيز. بالشبر تعرف الدار، تدربت بعد عشرات الكبوات هنا نتوء. هناك حفرة صغيرة. خلفها الكانون وزريبة المواشي. الزير على الشمال. المدخل بعد عشرة أمتار. عن يمينها صف الحجرات. تستند على الجدار مسترشدة به للهدف. عند باب غرفة مصدر الهمسات وقفت، كتمت السعال وحبست صرخة فزع. تحوقل فى سرها. لا تقوى على الوقوف. ترتعش. صدمت. هذه بلا شك تأوهات فاجرة، كادت تسقط مشلولة. أمر معيب لم تسمع به من قبل. ما الذى يحدث يا ربي. ضربت الهواء بيديها. لمست ساقاً خشنة. ثم ساقين منفرجتين ناعمتين. انفلتت الصرخة المؤجلة، حادة، قوية، مستنجدة : ((بيوا .. بيوا ..بيوا.. الجرسة يا ناس البلد)).

معدول الصعيدى وبقفزة واحدة كان خارج الغرفة والدار وركض بأقصى سرعته ليبتلعه الظلام. وحليمة تنبهت وكل همها

(*) الهوام : الحشرات الضارة.

اسكات العجوز الصارخة، تستجديها، تكمم فمها رغم المقاومة:

- فى عرضك يا حوشية .. استريني.

وحوشية صماء عمياء لكن صوتها المجلجل، يشق السكون ويمزقه. وحليمة بلا وعى، تتزلق يداها من الفم للرقبة، بكل الخوف والحقد .. تدوس حتى خمدت الأنفاس. كان هدفها مجرد الاسكات، فزعت من منظر حوشية المكتومة، لبست سروالها بسرعة، تقدمت لعتبة الدار لتكمل ما بدأته حوشية : بيو .. بيو .. الحقونى يا ناس البلد، الصعيدى قتل حوشية النور)). رددت الصوات مرات حتى تنبهت القرية كلها وتعالت أصوات النسوة هنا وهناك وزحف جيش النساء بالملاءات السوداء، تتجمعن حول حليمة، يصرخن، يندبن، وخرج الرجال خلف عباس توفيق بالعصي والفوانيس يريدون الصعيدى القاتل، توغلوا فى الزراعات وكمنوا فى المداخل، فتشوا البيوت المهجورة والحفر، واقتربوا من قرى الصعيد المتأخمة وتحول ليل بلاد الكنوز (*) الموحش الصامت لمأتم كبير.

(*) الكنوز : القبائل التى تسكن شمال النوبة.

إدريس على ـ وروايته الحراقة: دنقلا: الحلم والسراب والهروب ـ!

د. على الراعي

الرواية فى نهاية قرن

نصدق على الفور ما كتبه "إدريس على" فى إهدائه هذه الرواية لنا. يقول هذا الفنان النوبي المتميز: ((أصدقائي وأحبائى أهل الشمال، هذه كل أوراقي فلا تمزقوها. وهذا صوتي: فلا تسكتوه. وهذا أنا، فلا ترجموني، لأنى عشت بينكم وأكلت معكم، وعشقت حضارتكم، ومازلت. إنما أنقل لكم وبصدق جارح بعض أوجاعى وأوجاع قومي)). الصدق يغمر الرواية كلها، والأوجاع تئن بها السطور. ولكنها ليست أوجاع النوبة وحدها، وإنما هى ألام المطحونين، فى الجنوب والشمال على حد سواء. تمرد الثائر عوض شلالى على الظالم، ضاق صدره بالطغيان فى كل الوادى. طغيان أجهزة الملاحقة، السرى منها والعلني. انتفض غضباً للتمييز فى المعاملة بين الشمال والجنوب. رأى أن الأمور فى مصر تدار لخدمة الشمال وحده، أما الجنوب فليس له إلا أن يصبر على الفقر المدقع. يبني الشمال خزان ثم يعليه مرتين، ثم يبني السد العالي فتغرق النوبة كلها فى فيضان النهر الخالد. ويُهَجَر النوبيون بطريقة فيها كثير من

العسف، ويزول بلدهم من الخارطة، بكل ما كانت القلوب تحمله لها من ذكريات عذبة، وأسلوب حياة موغل في القدم، وتاريخ حافل كان في القرون البعيدة يجعل من النوبة أرضاً متسيدة ترفع رأسها في شموخ. كل هذه الحياة الغنية ابتلعتها مياه النهر الخالد. شغلت الدولة بإنقاذ المعابد وأحجارها المقدسة. ولم تلتفت إلى البشر النوبيين إلا قليلاً. فماذا كان بوسع عوض شلالي ان يفعل سوى أن يلحق بركب الثورة أن يجرى وراء سراب التاريخ؟ أن يحلم بعودة دنقلا موحدة شامخة؟

حلم العودة شغل الكثيرين قبله كان يستبد به: العودة الى الأندلس العودة الى أمجاد الماضي. الأنتقام من الحاضر الكئيب بالتطلع الى الشمال الأوروبي الغني، المتحرر. فعلها قبله الطيب صالح في ((موسم الهجرة)). ويحيى حقي في ((القنديل))، وتوفيق الحكيم في ((عصفور من الشرق)) وسليمان فياض في ((أصوات)) وغيرهم: طه حسين وحسين فوزى ولويس عوض. كل تطلع الى أن يحل له الغرب المتحضر مشكلات الشرق الغارق في غيبوبة. لم يفلت من هذا السراب إلا محمد حسين هيكل حين هتف ضد: ((الغرب السعيد المجرم)) في روايته الباقية: ((زينب)).

أمتاز عوض شلالي عن كل هؤلاء بأن ثورته كانت مسلحة بالنظرية. رفع شعار الاشتراكية ومطالبها، فعرف المعتقل، غاب فيه سنوات، ثم هرب عبر دروب وعرة حافلة بالمخاطر، انتهت به الى السودان. ومن السودان قفز قفزة هائلة عبرت به أفريقيا الى أوروبا.

عاش حياة الصعلكة والفقر المدفع، واشتغل بأحط الأعمال وحلم بأن يتزوج من بريطانية تمنحه الجنسية أو حق الإقامة، فخانته البيضاء وتركته على أبواب مكتب تسجيل العقود. بغياً كانت، سعت وراء ماله القليل وما أنزلته من نفسهاإلا أحط المراتب. ثم انتهى الى اليونان حيث تعرف الى ثرى يونانى كان مشاركاً فى ملكية سفينة أحلام تذرع البحار وتمنح المتعة الباذخة لركابها. كان اليونانى قد عاش فى الأسكندرية. وجمع فيها ثروة من فندق ومصنع للخمور. كان يعرف النوبة وأهلها معرفة دقيقة. عهد الرجل الى عوض شلالى أن يختار العمل المناسب على ظهر السفينة، ووجهه مدير الأغذية الى قاعة الطعام ودربه فتألق بسرعة ووصل فى فترة وجيزة الى منصب الكابتن إذ ذاك عرف أفخر الطعام والشراب وصادق أجمل النساء. ولفت نظر أستاذة التاريخ الشرقى فى إحدى الجامعات الفرنسية: أمرأة عادية الجمال عظيمة الفكر غيرت عقله وجعلته يرى العالم بنظرة محايدة. تحب الكون كله وتمقت فكرة التفوق الغربى. ملت زوجها المغرور فهجرته غير نادمه وجعلت تجوب الدنيا فراراً منه. اكتشفت الأستاذة عوض شلالى فى إحدى رحلات السفينة. تكلما كثيراً وتحاورا. هجرت من أجله الشمبانيا الفاخرة وتذوقت عرقى البلح اللاذع – شراب الجنوب. تعلقت به وتعلق بها وطاردته وطاردها، تلحق به حيث يكون. وسافر إليها المسافات. جنت به وأوشك هو أن يكون لها عبداً.

قرأ الصديقان معاً ((موسم الهجرة)) للطيب صالح، ولم

تتعاطف مع مصطفى سعيد. قالت أنه مجرد حيوان متعصب مريض. بعد طويل عناء تخلص من عقدة دنقلا التى كان يحلم بإعادة مملكتها الى الوجود. قالت له الأستاذة أن التاريخ ماض غابر، وإجتراره مرض وموت. فالذى كان كان. وأحلامه بدولة نوبية سذاجة ولوى ذراع للتاريخ. ولما دفع بأن النوبيين موجوديين بالفعل. لهم لغة ولون مميز. أجابت: وفى الهند وروسيا قوميات ولغات لا حصر لها!

بعد تسع سنوات فى الغربة، عاد عوض شلالى الى القريه ليبشر أمه بأنه قرر أن يتزوج .. ((الخواجاية سيمون)) صاحت الأم ملتاعة: خواجاية لم تختن؟ جرسه! من لحظة هذه المواجهة بين الأم وابنها، يتحول الصراع فى الرواية من صراع بين الجنوب النوبى وبين الشمال المصرى، الى صراع بين هذين وبين الشمال الأوروبى – الغربى عامة. المواجهة التى حاول عوض شلالى أن يقيمها بين النوبة وباقى مصر كانت مفتعلة. فى أول الرواية يصف عوض نفسه بأنه كان جزءاً من كل، حتى تلقفته الايدى العابثة ولوثت براءته. يذكر حياته الحلوة فى مصر أم الدنيا. يشير إليهاعلى أنها الوطن الأم فى ميدان التحرير تنجاب عنه الغمامة: هؤلاء الزاحفون فى الميدان ليسوا جنوداً لهم عداوة ولا حقداً. قلة من أهل الشمال فقط هم المعتدون. قلة باغية لم تفرق يوماً بين شمالى وجنوبى ولا بين مسلم وقبطي. وإذا كانت ((روحية)) زوجة أبيه فاسدة، فهى لا تمثل الا هامشاً بين نساء الشمال وبينهن فاضلات، مناضلات. نعم. القاهرة جميلة وأهلها على درجة كبيرة من الطيبة والتسامح!

وحين عاد الى قريته بعد الغيبة الطويلة تعمد أن يسقط من حكايته لرفاقه رحلته الى دنقلا الحلم. ومحاولته الفاشلة إنشاء جبهة النوبة الموحدة. كاد يسجن إذ ذاك، لأن أهل دنقلا وحلفا لا يعرفون تاريخهم. تماماً مثل أهل النوبة المصرية. ظنوه عميلاً لمخابرات الشمال جاء يضرب وحدة السودان. رفاقه السودانيون طالبوه بأن يعود الى الشمال ويواصل النضال ضد الطغيان. إذ ذاك كفر بالشمال والجنوب ودنقلة والرفاق، وانطلق بعيداً عن وهج الشمس والقارة السوداء كلها، لم تكن عودة دنقلا الا حلماً هشاً شغلت به نفس عوض شلالى، وسرعان ما سقط هشيماً لدى أول بادرة حب وأعتراف من أهل الشمال الأوروبى: أولئك الذين يؤمنون بالحريات كلها، حرية العقيدة وحرية التصرف وحرية الشذوذ وحرية المومسات وكل حرية أخرى يلمع فى الذهن نورها فيندفع صاحبها وراءها غير متردد ولا مبال، مهما كانت تافهة أو غير مؤدية. وهذا مافعله عوض شلالى. حين واجهته امه وأفراد عشيرته بالأمر الصعب. أما أن يترك الخواجاية غير المختتنة ويتزوج واحدة من بنات جنسه، أو يصدر ضده قرار الحرمان والنفى من العشيرة.

كان عوض قد أظهر لا مبالاة بالغة القسوة حين هجر القارة السوداء، وشغل بأمر نفسه فقط. ترك أمه ولا معين لها ولا مال، حتى اضطرت الى أشد ألوان الهوان: العيش على معونة الشئون الاجتماعية. ولما ووجه عوض بهذا السلوك المعيب. أقر من فوره أنه كان جانياً، ورضخ لطلب الأم أن يتزوج من حليمة، التى كانت تخدم الأم فى غيابه. متطلعة الى ان يعود يوماً الى البلدة ويتزوج منها.

وحين يتم الزواج بالفعل تدخل رواية ((دنقلة)) مرحلة صراع وحشى آخر، بين أنانية زوج قرر أن ينحني فى الظاهر فقط لسلطان التقاليد، وتسلط أم كان العون يبذل لها طوعاً من جانب حليمة فأصبح هذا العون الآن واجباً محتماً على الزوجة الشابة. ووجهت هذه الأخيرة بموقف صعب حقاً. دخل بها زوجها بعد طول عناء وعاش معها ليلة واحدة ثم أنبأها أنه مسافر من فوره بحثاً عن ((المعايش)) .. كما يفعل كثير من أهل النوبة. ولكنه سافر ولم يعد. لم يترك عنواناً، ولا عرف أهله أين يقيم ومع من يعيش. انتظم فقط فى أرسال العون المادى للأم والزوجة. قيل لهذه الأخيرة أنه لا حق لها فى الشكوى، فالزوج الغائب قد وفى بالتزاماته المالية جميعاً. بيتها أصبح أحسن وأكثر ترفاً من بيت العمدة. والأب الذى ذهبت تشكو إليه نهرها وتقول أنها لن تعود الى بيت الزوجية أغلظ القول وحلف بالطلاق ثلاثاً. يميناً يلتزم به أن لم تعد الى بيتها.

تدخل هنا المنطقة البالغة الحساسية فى هذه الرواية، المنطقة التى جلبت على ((إدريس على)) سخط قومه البالغ، بل ثورتهم العارمة عليه. ويستخدم النقد هنا أدق أدواته وأكثرها حساسية، وأجدرها ألا يسىء لأحد من الأطراف، حين يتصدى لما وقع من حليمة قرب ختام الرواية. تتمرد حليمة وقد استتبد بها الشوق الى زوجها، رجلها، رفيق الفراش، فتذهب من فورها الى كوخ عامل بناء صعيدى رحال كان يرمم لها البيت، فتمنحه نفسها فوراً. ولما تصحو حماتها فجأة وتكتشف الفضيحة تصرخ طالبة العون، فتخمد حليمة انفاسها، وتزعم من بعد أن الصعيدى قتلها وفر هارباً. ويسدل ((إدريس على)) الستار

على أحداث روايته قبل أن تشتعل نار الجحيم التى تنتظر حليمة فور أكتشاف الحقيقة.

من السهل أن يوجه اشد اللوم الى الزوجة الزانية، غير أن لوماً أشد نكراً ينبغي أن يوجه للزوج عوض شلالى. لموقفه المتنطع من الزوجة، والنوبة ومصر، والقارة السوداء وذوبانه الذى لا يعرف الخجل فى حضارة الغرب الأبيض.

كان عوض شلالى ثائراً هشاً، فانهارت قضيته المزيفة بانهياره، وعبث ما قاله فى الدفاع عن قومه وناسه ورفاقه، فإن واقعه المرتد قد اثبت انه كان يحب نفسه أولاً وأخيراً. وحتى حينما أصبح بمنأى من البلاد التى تكمم الافواه وتلقى بالساخطين الى السجون، كما قال لصديقته سيمون، فقد ظل يفكر فى نفسه فقط وهو يتمتع بحرية الغرب. لم ينفعل مع أحداث قارته، حتى وحرب اكتوبر تعبر الهزيمة الى النصر على الأعداء. قالت له سيمون: لقد صنع قومك شيئاً رائعاً. فيسأل : قومي؟ تقول سيمون عبروا، فيكتفي بكلمة: آه!

تحتج سيمون: كيف تزعم حبك لى. وقلبك ملئ بكل هذا الحقد؟ الذى يحب يغفر. فيرد: والذى يسجن عشر سنوات ظلماً لا ينسى. هذه اذن هى المشكلة بكل ابعادها. الظلم يشوه الناس يقطع صلاتهم ببلدهم وتاريخهم. يحرمهم من متعة الانتماء، ويحرم الوطن من مغانم هذا الانتماء من هذا المنظور تؤدى ((دنقلة)) واجبها كاملاً. تحذر من عواقب التهميش، والتفرقة بين المواطنين شمالاً وجنوباً،

وهو ما لازلنا نعاني منه حتى الآن، والذى أطلق اشباح الارهاب من مخابئها افادة من أخطاء أجيال متعاقبة من الحكام. غير أن الرواية لا تفعل هذا وحسب بل تعرض علينانماذج مؤثره من تعلق أهل النوبة ببلادهم وتحلقهم حول فنها، وغنائها، وعادتها، وتقاليدها، وتبث شكواهم التى لا يخبو لها أوار من مشكلة الهجرة المرتجلة التى اضطر إليها أهل النوبة بعد بناء السدين : اسوان والعالى. وهى شكوى عادلة، لا داعى لأن نتجاهلها أو نخشي من أن تتحول الى نغمة انفصال، فإن الذى بين النوبة ومصر أرسخ من أن تهزه أحداث مهما بدت مهددة بالرواية – عدا هذا – مشاهد مصورة بإتقان مثل: المواجهة بين شلالى وقومه، وبينه وبين قوى الملاحقة، وبينه وبين أمه وزوجته. وهذا كله يوفر مادة روائية تشد الانتباه.

نشرت فى جريدة الأهرام

١٠ يونيو ١٩٩٦

إدريس على محمد
مواليد أسوان

عضوية النقابات والجمعيات :
- عضو عامل باتحاد الكتاب
- عضو عامل بنادي القصة
- عضو عامل بجمعية الأدباء
- عضو عامل بنادى القلم الدولي الفرع المصري

الكتب المطبوعة حسب ترتيب صدور الطبعة الأولى :

المبعدون	الطبعة الثالثة	مكتبة الأسرة	2003
واحد ضد الجميع	الطبعة الثالثة	مكتبة الأسرة	2000
دنقلا	الطبعة الأولى	هيئة الكتاب	1993
وقائع غرق السفينة	الطبعة الثانية	مركز الحضارة	1999
انفجار جمجمة	الطبعة الثانية	المجلس الأعلى للثقافة	2000
النوبي	الطبعة الثانية	مكتبة الأسرة	2002
اللعب فوق جبال النوبة	الطبعة الأولى	مريت	2002
تحت خط الفقر (تحت الطبع)	الطبعة الأولى	مريت	

الجوائز :

- جائزة جامعة اركانسو الأمريكية عن ترجمة رواية دنقلا للإنجليزية عام 1977 .
- جائزة أفضل رواية من معرض الكتاب عام 1999 .
- درع الثقافة الجماهيرية من مؤتمر القاهرة الأول للإبداع عام 1999 .
- الجائزة الثانية لمسابقة نجيب محفوظ للرواية العربية من المجلس الأعلى للثقافة عام 2004

العالمية
للطباعة والنشر